البشير الدامون

زهرة الجبال الصمّاء

رواية



المركز الثقافي العربي

البشير الدامون

زهرة الجبال الصمّاء

الكتاب
البشير الدامون
تأليف
زهرة الجبال الصمّاء
الطبعة
الأولى، 2017
عدد الصفحات: 192
القياس: 14 × 21
الإيداع القانوني:
2017MO3859
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9981-72-048-0

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 - 01 352826
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نُشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة

المملكة المغربية



وزارة الثقافة
ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ

البشير الدامون

زهرة الجبال الصمّاء

رواية



المركز الثقافي العربي

إلى روح أمي رحمة الحجام

استفقتُ على جلبة. بيتنا في ذلك الصباح الباكر كان على غير عادته. هلع ينفثه صراخ أمي التي كانت تغدو وتروح مُسرِعَة وقلقة وكأنها تتهيأ لشيء عظيم غريب. كانت تلك أول مرة أرى دموعاً تنساب على وجه إنسانٍ كبير في السن. على وجه أمي تنهمر دموع، ترشفها وتنادي عليّ وهي تغدو وتروح بقلق بادٍ باحثة عن منديلها ونعلها.

طلَبَتْ من جارتنا ميمونة أن تناولني نعلي البلاستيكي، قبل أن تشرع في النحيب، مردِّدة كلاماً لم أفهم معناه:

- غدروا بك أيها الحبيب... الجبال الصماء لم يؤثر فيها عنف الأمطار وسمك الثلوج ولم تلينها قوة الرياح، فكيف ستلين أنت قلبها بغنائك وبالنفخ في مزاميرك؟ وكيف ستجعلها تنبت زهرات؟ نصحتك ولم تكترث وها هي تتخلَّص منك كما تخلَّصت من أمثالك من قبل.

حافية القدمين سِرْتُ خلف أمي التي تدثَّرت بمنديلٍ وأرخت قفطانها، وانتعلت نعلاً أحمر، وهي تولول وتهرول. انحدرنا من تلّ حجر الفرْشي حيث يقبع بيتنا. أجري. جُرحٌ بأصابع قدمي سبّبته لي قطع حجر الفرشي. أسرعُ خلفها متناسية الألم. خوفٌ ينبش قلبي.

وصلنا إلى البطحاء، ساحة واسعة من التراب الأحمر تتوسط قريتنا، بينما تنبت بيوت القرية على منحدرات التلال الحجرية المنسدلة من الجبال. وشوشةٌ تسري بين مَن اجتمع من أهل القرية. صرنا محطّ الأنظار. اقتربت النساء منّا. علَت همهمة بين الحاضرات قبل أن يعلو نشيج جماعي. بعض النسوة تصبِّر أمي وتتأسَّف لحالنا، مدَّت إحداهن يدها وربتت على رأسي قائلة:

مسكينة تركها المغدور صغيرة.

مشوَّشةً صرتُ محطّ نظرات حزينة.

لم نكن وحدنا المكلومتين. بكاءٌ علا من الطريق الغربي المؤدي إلى البطحاء. زخّات العويل استعرَت حين اقتربت مجموعة من النساء والأطفال. كانوا أفراد عائلتي أحمد وعبد السلام مرافقي أبي. ارتفع عويل يشقّ العنان اتجاه الجبال الصماء.

من بين الجموع تقدَّم نحونا مجذوب قريتنا يَحْيَا النْسَا بجلباب أبيض وعمامة خضراء، شدَّ على يدي أمي متمنياً لها الصبر، ربت على رأسي قبل أن يتقدّم نحو أفراد العائلتين النائحتين ويحني رأسه ويُدمدم بكلمات عزاء.

خمَّنت أنّ مصيبة لم أستَجْلِها ساعتها لحقَت بأبي وبأفراد جوقته، وأنّ ما حدث هو سبب إثارة هذا الهرج المفزع. تقدّم يحيا النسا يقود الجموع صعوداً نحو الجبال. وسَّعَت أمي من خطواتها مرفوقة بأفراد عائلتي الرجلين، وببعض الرجال يتبعهم الأهالي بنظرات تحمل حزناً كبيراً. على قمم الجبال كانت السماء بيضاء شفافة والشمس هاجرة أوقَدَت نارها. نسمات باردة حدَّت من

ضراوتها حين هبَّ في وجهنا رذاذ ماء منبعث من الشلال حيث ينبع نهر قريتنا.

ما إن تجاوَزنا المنبع وبدأنا نصعد عقبة الجبل حتى عاد الصهد يُعَرقني. عرقت يد جارتنا ميمونة التي كانت تقبض على يدي. لم تتوقف أمي عن الهرولة ولم أتوقّف عن محاولة اللحاق بها في ارتقاء المرتفعات. صارت الشمس حارقة والطِريق ضيقاً صاعداً نحو السماء بين صخور تحجب عنّا، نحن قاطعيه، رؤية المدى البعيد. أتلهّف لمعرفة ما حجم الفجيعة التي تنتظرنا.

لم يعُد أحد يشغل باله بتعبي، شمَّرَ كلّ واحد على قوته، كبر صراعنا مع الارتفاعات. قطعنا مسالك حجرية وعرة قبل أن تشير الأصابع إلى الأعالي. من بين المنعرجات المتحجِّرة بانت أطياف ثلاثة بغال نازلة بتؤدة وحذرٍ يقودها رجلان في اتجاهنا. لم تغادر عيناي الموكب الغريب النازل نحونا من بين السماء والجبل ونحن نُسرع نحوه، تعثَّرتُ وجرحتُ قدمي.

كلَّت عيناي من وهج الشمس وأنا أتطلّع إلى معرفة حمولة البغال. نظري مشوش بالألوان الصفراء المشتعلة. من بين اشتعالها تراءى لي الشخص الذي يقود البغل الأول بعمامته من الشال الأصفر وقامته الطويلة. طوى فرحٌ مباغت قلقي وصرختُ بداخلي إنه أبي.

اقترب الرجلان والبغال. صَفَت عيناي من غَبَشِهما. لم يكُن السائس القابض على لجام البغل الأول والدي، ولا السائس الثاني.

من أمام الموكب المقترب، بانَ واضحاً أنّ هناك رجلاً ملقى

على بردعة البغل، وأنّ البغل الثاني يحمل رجلاً في الوضع نفسه. امرأة تركب البغل الثالث، علا نحيبها فردَّ عليه نشيج أمي وباقي النساء. كانت عمتي.

دماءٌ على الفوطة البيضاء المنسدلة على صدرها وعصابة على عينيها. انقضَّت أمي على الجسد المنثني على ظهر البغل الأول رفعت رأسه وهي تناديه باسم أبي، كانت عينا مرافقه أحمد الزمار مغمَضَتين ولون الدم يصبغ قميصه الأبيض جهة الصدر والبطن. وجهُ الرجل الثاني تكسوه الدماء وقد جحظت عيناه. كانت جثة عبد السلام طبَّال الجوقة.

صرخةُ مرارة كاوية ندَّت عن عمّتي:

- لقد قتلوا رفيقَيّ، وصيَّروني عمياء، ولا أعرف إنْ كان أخي حياً أم ميتاً.

هرع الصاعدون ليكشفوا عن وجهَي الجثتين المطويتين على البغلين. ارتفع عويل النساء من جديد. الولولات تثقب أذني.

سائسا البغال اللذان ينحدران من قرية لا تبعُد كثيراً عن قريتنا قالا إنهما وجدا الضحايا ملقى بهما بين الجبال مع المرأة، فتطوَّعا لنقل الجميع.

تشبَّثت أمي بأكبرهما سناً:

- أين زوجي؟

وهو يمسح جبهته من قطرات العرق، ويقبض على لجام البغل أجابها:

- كأنه رُفِعَ إلى السماء أو ابتلعته الأرض لا أثر له ولا أثر لشامة.

تساءلتُ من تكون شامة.

دونما اهتمام بهذا الاسم الذي شغلني صرخَت أمي:

- أين زوجي ومَن غيَّبه عني؟

***

كان أبي كثير الغياب عن المنزل خاصة في موسمَي الربيع والصيف. حين يتهيأ للرحيل كان يفتح صندوق أغراضنا التي نعتبرها ثمينة، يُخرج بعناية قطعة الثوب الأبيض النقي التي تحوي المزامير، ويختار واحداً منها. يضع سرواله الأسود المطوي بعناية، وقميصه الناصع البياض، ونعله الأصفر الجديد، في جرابٍ كبير من سعف النخيل الجبلي، يحمل جلبابه الأسود المزركش بورود من خيوطٍ ناصعة الألوان على كتفه، يقبِّلني، يودّعنا ويرحل.

كنت أعرف من أمي أنه يذهب بحثاً عن الرزق. لكن عمّتي تقول لي إنه يذهب أساساً ليغني للجبال الصماء وتشير بيدها إلى قمم الجبال التي تمتدّ محتضنة قريتنا والتي تتفرَّع منها صخرة بيضاء عملاقة على شكل أذن.

تعي عمّتي أنني لم أفهم كلامها فتخاطبني:

والدكِ يغني للجبال عبر إحياء الحفلات ونشر الفرح بين الناس بصوته ومزماره، حتى تنبت زهرات البلسم من بين صَمَمها.

أحملقُ فيها مشدوهة وهي تضيف:

تيمّناً برؤية زهرات البلسم تنمو أطلَقْنا عليك اسم زَهْرَة.

تصمُت عمّتي للحظة قبل أن تواصل حديثها مُوضحة:

- أبوكِ نَذَرَ نفسه للغناء. إنه يرى أنّ الغناء هو السبيل للشفاء من شرور النفس، وممّا تبثه المرتفعات الرمادية المحيطة بنا من هَمّ ثقيل على القلب.

كنتُ أتابع حديثها باهتمام كبير، رغم أني لم أكُن أفهم أغلب ما كانت تحكيه، دون أن تنتظر مني أن أسألها عن علاقة الغناء بالشفاء من شرور النفس، تابعت حديثها:

ما غناؤه إلّا وصية من أجداده منذ قديم الزمان. نحن منذورون للغناء لعمى الجبال وصَمَمِ القلوب.

القرويون كذلك يعتبرون غناء والدك تحدّياً، ونكاية بما يُنْثَر من غبار الصمم حولهم، وترفيهاً عليهم من قسوة عيشهم، كانوا يلحّون عليه لتنشيط أفراحهم، سواء كانت عرساً، أو عقيقة، أو ختاناً أو احتفالاً بموسم الحصاد... في غالب الأحيان كان والدكِ ينشط الحفلات من دون مقابل أو بمقابل زهيد. وكنتُ الصوت النسائيّ الوحيد في الجوقة التي تتكوّن بالإضافة إليهما من طبّال وزمّار.

أفراد الجوقة كانوا يحيون الحفلات بالغناء والضرب على الطبل والنفخ في المزامير، ليلهبوا الحاضرين والحاضرات مرحاً ورقصاً وزغاريد. كان أبي يغني، ثم يعزف على المزمار موسيقى لكلماته، قبل أن يتدخّل رفيقاه بالتطبيل والتزمير وعمَّتي بترديد لازمة الأغنية. كان يغني عن الحبّ والصبر وعن جمال البنات وجمال النبات والزرع والربيع والخضرة والماء، ورغبة الحبيب في

اللقاء بمحبوبه، وعن صمَمِ وخَرَس الأحجار وانتظار ظهور زهرات البلسم.

ينتشي أصحاب الحفل فيكرِّمون الجوقة ويهدون لوالدي علاوة على أجرته القليلة قطعاً صغيرة من اللحم، وبعض الخبز وأحياناً حبات من الحلويات البدوية.

باقي الأيام يقضيها أبي برفقتنا كسائر القرويين، يعتني ببستاننا الصغير، يرعى الماعز ويوفِّر المرعى لبقراتنا ويتوجّه للسوق لجلب ما قد نحتاجه من مؤن وبَيع ما قد يفيض عن حاجتنا. أمي كانت تساعده بتفانٍ عازمة على جمع قدرٍ كافٍ من المال يساعدنا على الهجرة إلى المدينة.

***

ونحن نستقبل موكب البغال كنت أرفع عيني إلى الصخرة الكبرى التي هي على شكل أذن، وأتساءل إن كانت الجبال تسمع ضجيج هَوْلنا الآن أَم إنها غير مبالية!

رافقنا بعض أهالي القرية بوجوه بائسة صامتة إلى بيتنا. تفتر شفاههم عن مواساتنا واستنكار ما وقع والدعاء لنا بالصبر. تولول أمي:

- لو وجدته مقتولاً لبكيت ويئست، لكن أشدّ الألم هو أن لا أعرف أين هو.

يتملّك عمّتي هياج. تنزع العصابة عن عينيها وتصيح أنها لم تعُد

ترى إلّا لون الدماء، ولا تشمّ إلّا رائحة الدم التي تصيبها بالغثيان. تنهض وترغب في الخروج، تحاول امرأة أن تُجْلِسها، لكنها ترفض. تتعثّر في مشيتها، وترتطم بما يكون موجوداً في طريقها. تُقسم أنها ستنتقم من العريبي ورجاله، تسبّ وتبكي.

صرتُ أغلق عيني وأتخيّل نفسي أنني فقدتُ بصري فأفزع من الظلام وأعود لفتحهما بسرعة. من يومها لم أعُد أخلد إلى النوم إلّا بعد أن أشقق الضلفة الخشبية للنافذة الوحيدة بغرفتنا ليتسرّب بعض النور، فتأمرني أمي بأن أغلقها اتّقاءً للبرد.

***

تلبية لرغبة وإصرار أمي قرَّرَت عمتي أن تغترف من معين آلامها وتحكي لنا عمّا حدث. استدعت شغفها بالحكي. في قريتنا نعتبر الحكي وَلَع نسائي، وله مرتبة الدفء في بيتنا. في الليالي الباردة كانت أمي تمنعنا من إدخال مجمر الفحم وتقول إنّ النار التي خُلقَت لتُدفئنا قد تصيبنا بالبرد الكلي وتقتلنا إنْ أسَأنا استخدامها، فلنتدفأ بالحكايات.

كنا قد ألفنا حكي عمّتي حين تعود من إحياء حفل ما، فتحكي لنا بالتفاصيل عن الحفلة وأغاني الجوقة وعن الحاضرات والحاضرين.

قالت لنا ليلتها:

سأحكي، أجدادنا يؤكّدون أنّ الحكي والغناء يزعجان الجبل الأصمّ. كم أرغب في أن أزعجه.

عادة كنت أستجدي دفئاً من حكي عمتي، له سلطة تدفئ وتُهدهد الروح. لكن الدفء الذي تمنَّيته تلك الليلة كان زخات من البرد على روحي.

تمدَّدت عمتي على حصيرة البردي جانب المتربة وتنهَّدت وهي تعتزم أن تنطلق في الحكي، وقبل أن تسهب نطقت:

والدكِ لم يَقتُله غناؤه لشامة، بل أهلَكَه غناؤه للحجارة الصماء.

كانت الجوقة مدعوّة للاحتفال بخروج العريبي من السجن. لم تكُن المرة الأولى التي خرج فيها الرجل من السجن منذ أن حلَّ مع عائلته بالتلّ الأصفر. عائلة مكوَّنة من سبعة رجال وفتاة صغيرة. استوطن أفرادها التلّ بطريق المرتفعات، بنوا بيوتاً وإسطبلات للبهائم وعيَّنوا أنفسهم حماة للطريق المؤدية إلى الجبال.

اغتنت العائلة سريعاً من التهريب والتجارة في المواشي المسروقة وقَطْع الطريق على المهربين بين مسالك سبتة وتطوان. العريبي الرجل الشرس كما كان يُلقَّب تزعَّم العائلة بعدما وهنت حالة والده، وتزعَّم زنازين السجن.

تتأسى عمّتي، تصمُت لبرهة قبل أن تتابع:

استيقظَ والدكِ يومها مع إطلالة الفجر، اختارَ مزماراً وجرّبَه، نفخ فيه مراراً قبل أن يستعجلني بالانطلاق. تطلَّعَ ملياً إلى المرآة، وقال إنه علينا أن نزور عين الحنجرة الذهبية، قبل الوصول إلى منزل الحفل.

كان على غير عادته. فرحٌ وقلقٌ غريب يدثِّرانه، كما كان يشتعل أناقة وجمالاً. لا تثقي بما يُقال عن لون والدك الكُحْلِي، أنا لا أمتدحه

لأنه أخي، والدك كان جميلا وقد يكون الجمال خَلْفَ العديد من المصائب. عَرَجنا على الجبل حيث تنبع عين صغيرة ينبعث ماؤها من بين أحجار رمادية بيضاء كبيرة على شكل شفتين وتجويف كتجويف الفم والحنجرة. أهالي جبالنا يتبرّكون بها، ويشربون ماءها أملاً في الحصول على صوتٍ شجي. وحده الصوت الشجي قادر أنْ يليّن القلوب الصماء.

من يزمع أن يشارك في فرقة موسيقية منشداً أو مطرباً أو حتى طبالاً أو زمّاراً عليه أن يقصد العين ليشرب من مائها، ويغسل لسانه وحنجرته أملاً أن يكسب صوتاً طروباً. كما أنّ كل فتاة تطلّ على البلوغ كانت ترافق أمها إلى العين، تغسل فمها، تطهِّره ثم تشرب من مائها حتى تكسب صوتاً جميلاً يسلب لبّ الرجال وبخاصة لبّ مَن سيتزوّجها.

الأمهات في قريتنا يجبرن خطيبات أبنائهن على مرافقتهن إلى المنبع، وتطهير أفواههن وشرب مائه بحضورهن راجيات أن يضمنن زوجة مطيعة لأوامرهن وأوامر أبنائهن. المنبع يقصده كذلك طلبة القرآن من قريتنا ومن القرى المجاورة للشرب من مائه والمضمضة به كي يحصلوا على صوت جميل يرطّب قلب مَن يستمع إلى تلاوتهم.

في العين ألحّ علينا والدك أن نشرب من مائها وأن نملأ القِرَبَ المائية حتى نرتشف منها ونحن نحيي الحفل.

عيناه ازداد لمعانُ لونهما يومها والبسمة التي لم تكن تفارق وجهه كانت بهية في جلال. لقد نزل عليه السرّ. ذلك ما يُقال عندنا للعريس ليلة دخلته. والدك نزل عليه ليلتها السر الأكبر، سرّ ينزل

على الصالحين والأولياء والأنقياء والعاشقين المتيمين.

كان الحفل باذخاً والعريبي يتمختر بين المهنئين. الأكل وافر والساقي ظلّ يحث العازفين على الشراب أكثر لتنشيط الحفل.

والدك بين معزوفة وأخرى يرشف من ماء الحنجرة الذهبية. على غير عادته كان يعزف على مزماره ويغني والعرق يتصبّب منه، وكان المزمار يُطلق عزفاً حنوناً قال عنه سامعوه إنهم لم يسمعوا مثله من قبل. مواويله كانت تستجدي الجبال التي لا تردّد الصدى وتنادي على الحبّ والصبابة والحنين الجارف.

صار يرفع عينيه حيث تلتقي الجبال بالسماء ويغني:

لله يا الجْبَل العَالي ويا الحْبيبْ الغَالي

رْطْبْ قَلبْكْ عْليّ وشُوفْ منْ حَالي...

أغنية بها الكثير من الشجى الجميل والشكوى.

تمادى في غنائه وتمادى في مدّ بصره إلى الحوش حيث تجلس النساء ورؤوسهن ملحفات بفوط مزركشة تتدلى على وجوههن. لا أنكر أنني كنت أيضاً أدَع نظراتي تتسلل بحثاً عن شاب يشفيني من غدر السنين ويوقظ حلمي بحبٍّ يثيرني ويسترني. لكنني حين أتذكر أنني أنثى سرعان ما كنت أخفض عيني وألتهي في ترديد كلمات ما كان يُتغنى به. على عكس صوت أخي الشجيّ أقرّ أنّ صوتي ليس جميلاً وأن شرب ماء الحنجرة لم يَزِدْه شجواً.

كنت أجلس خلف الرجال المنشدين العازفين وأتدخل مردِّدة ما ينشدونه. وفجأة وأنا أردِّد كلمات أغنية:

لله يا الجبل العالي ويا الحبيب الغالي

صدح صوتٌ رنّان من الجهة التي تعمرها النساء يردّد مقطع:

«زْطْبْ قَلْبْكْ علي وشُوفْ مْنْ حَالي»

هلَّل الرجال رداً على الصوت الجميل المنبعث من بين المناديل الحاجبة للوجوه. الفتاة المردِّدة صارت ترد بدلاً مني بصوت رخيم باذخ حزين كلمات الأغنية في تناغم مع ضربات الإيقاع التي يوقعها أفراد الجوقة. تفاجأتُ وتفاجأ الحاضرون حين نزعت المرأة المردِّدة الحجاب الذي يدثِّر رأسها ووجهها. كانت شَامَة أخت العريبي.

والذكِ وفي انتشاء كاسح طلبَ مني أن أصمت، وانطلق يغني وشامة تردِّد معه:

أنا المْفْني بالغْرامْ والعَيْشْ بْلاَ حْبيبي حْرَامْ

كأنه مأخوذ بمسٍّ من الجنون صار يحرِّك رأسه جذلان ممّا يُنشد. كفّت أيادي أفراد الجوقة عن الضرب وتوقّفت الأصابع قبل أن يتعالى أنينٌ عالٍ من زمارته. عَزْفٌ كان القلب عازفه. أرخى العنان لحبال صوته فصدَح صوت عميق قاتم سجين نشوة الحب. نشوة تغيّر صوتنا وملامحنا أيضاً. صوت عتيق وناعم يطوف حولنا ويخترق سكون الجبال.

صار الغناء حواراً متبادَلاً بينه وبين شامة. وصارت له قوة ارتجال كلمات عشق وتوليفها في نظمٍ بديع يشدو بالحب. كلمات حبّ أضاءت المروج المحيطة بالجبل الأقرع.

نَهَيْته، فواجهني بأنه يحسّ ساعتها أنّ له قدرة كبيرة على الصراخ على طريقته. نصحه طبال الجوقة ألّا يتمادى. لكن دون جدوى. فصوت العاشق علا صادحاً كما لم يفعل مرة من قبل، حتى

قال عنه الحاضرون إنه صار شدواً عذباً لم يسبق لهم أن سمعوه بتلك العذوبة والرقة والحزن اللذيذ، وأنّ الصخور الصمّاء لا بدّ وأن تكون قد سمعت مناجاته، ورَقّ قلبها. بل هناك مَن أكّد أنه لأول مرّة سمع الجبال تردِّد الصدى، وأنه لا بدّ وأن تنبت زهرات البلسم على إثر تلك النداءات.

غمغمت عمتي، قبل أن تواصل:

لا حبّ دون تمادٍ وإلّا سيكون حباً ناقصاً.

تمادى والدكِ، وكأنّ ما نظَمَه ليلتها لم يكُن كافياً لصدّ صهد حنينه، فاستمرّ يضرم النار بغنائه في قلبه وقلوب المنصتين، وفي روح شامة. ارتفع صوته حلواً رائقاً من حنجرة صقَلَتها أحلام الغرام. صوتٌ لم يُخلق إلّا ليُناجي صَمَمَ الحجر والبشر ويلطخه بعطر الورد.

تواصلت النغمات في إشعال الصبابة. اهتزّت جوارح شامة. فوقفت وأرخت عن وجهها شالها الشفّاف وارتمت ترقص قبالة الرجال وقبالة العريبي وأمام الجوقة العازفة. ليلتها لم أكُن وحدي التي فاجأتني قصة حب شامة ذات العينين العسليتين والشعر الطويل الكستنائي المتماوج على وجهها، ووالدكِ ذي العينين الجميلتين اللتين شعّ لمعانهما أكثر من فرط عشقه.

أخبرني عبد السلام بأنه سبقَ له أن باغتهما ذات فجر يتطارحان الغرام بين الجبال بفجّ الريح، فجّ لا يمرّ منه في تلك الساعة من الليل المثقلة بالبرد والضباب إلّا راغبٌ في نبش صمم الحجر، أو باحثٌ عن الهلاك أو مجنون، أو مسكونٌ بالحب. كان الحب قد سكنهما.

لم أكُن راضية عمّا يقوم به أخي فهو متزوج وأب، وتأكّدت ساعتها أنّ الجبال الصماء التي لا تغفر لمن يزعجها، عاقَبَته وسلَّطت عليه حبّ أخت العريبي.

أكّد الحاضرون أنّ شرارة نظرات العريبي كانت تحرق الفراغ وسواد الليل ليحدج بها والدكِ وجوقتنا. يحيا النسا قال إنه كان ينتظر ساعتها أن يلعلع البارود في اتجاه والدكِ الذي كان غير مبالٍ من فرط سكره المزدوج، سكره بالخمر وسكره بالعشق.

شامة التي تجاهَلَت بأس إخوتها أطلقت الحرية لصوتها ولعينيها تغامزُه، واصلَت ترقص وتغني لمعشوقها:

ادّيني امْعَاكْ اديني... لله لا تْخَلّيني...

قبل أن تناجي أخاها العريبي:

سيدي خَايْ وارْضَ عْلي

رَاهْ الحب اخْرَجْ علي

قام والدكِ من قعدته ليرقص ويغني:

أنا بْغيتْ شامة بالنّيّة

لله يا العْريبي خَليهَا تْكُونْ لِيَّ

احترق العريبي وطلبَ من أحد رجاله دعوة والدكِ لإيقاف الغناء دون إثارة انتباه، لكنّ الحب كان قد فعل فعلته، وحين يختلط الحب مع الخمر فقد تؤدي تلكِ الخلطة إلى نهاية غير عادية.

لم يكَد الرجل يتمّ نصحه حتى رفع والدكِ عقيرته:

أنا بْغيتْكْ والعريبي جْرَ عْليّا انا كَنْبْغيكْ وخَاكْ جْرَ عْلي.

وكأنّ الهوس بجنون الحبّ ردّ على لسان شامة:

- غْرَامْ حْبيبي جَاني من الفَرْحَة بْكاني.
- لا تْنْساني يَا احْلى اسْمية ما يْفْرّق لحْبَابْ غيرْ قْبِيحْ السْميّة.

بين المشاعل التي تهتز ألسنة نارها بريح خفيفة، والفنارات اليدوية التي تبعث نوراً خافتاً كانت نظرات الموجودين منقسمة بين تتبّع الفرجة والتطلّع إلى ملامح العريبي. رغم الضوء الكابي للفوانيس التي رأيت نورها حمرة خافتة تزيد غمّة نفسي، فقد استطعتُ أن أرى ما يخيف على وجه العريبي. عينا الرجل كانتا تنفثان ناراً.

في تلك الليلة اكتشفت ما لم أكن أعرفه عن أسرار العيون. وكأنّ القدر نبّهني إلى سرّها الذي كنت أجهله ولم أقدِّره إلّا بعد أن ظلَّلت عيني غشاوة من لون أحمر. للحب والكراهية أثر على العيون.

نظرات والدكِ كانت تسبح بين شعلات المشاعل لتذكِي سرّ لمعانهما بحثاً عن عينَي شامة، وعينا شامة كانتا متسربلتين في ملكوت الحب، وعينا العريبي كانتا تمتحان من الصدمة والشماتة والهزيمة، وجنون الغضب.

غَضِبَ العريبي وغَضَبُه غَضَبُ جبّار لا يُقاوَم، فما زال لقصَّة بتر قوائم بقرات وعجول علال صدى مخيفاً ومزلزلاً في قلوب أهالي المنطقة.

المرحوم أحمد الزمار انحنى عليَّ وهمس:

اللهم اجعل عاقبة هذه الليلة تمرّ بخير مع وحش بتر بالسواطير قوائم عشرات بقرات حلوب.

في الأرض البطحاء لقرانا، كان عَلالْ العائد من الهجرة بالخارج قد هيّأ قطعة أرض فلاحية، وأقام إسطبلاً لتربية الأبقار، وحتى يكسر العريبي شوكة مَن رأى فيه منافساً له أحضر في الليل رجالاً ملثّمين يحملون سواطير، وشرع يأمرهم ببَتر قوائم البقرات التي كانت واقفة ترعى، أو ممدّدة تجترّ ما بلعته.

كان الخوار مؤلماً وفظيعاً، كما حكى اسْتيتُو الذي عاين ما وقع من بين أحراش الغابة المطلّة على الحقل حتى ظنّ، كما قال للناس، أنّ عفاريت كانت تقوم بذلك. صدمة الرجل كانت قوية حتى إنّه ظلّ يحكي ما شاهده لكلّ مَن يلتقي به من أهل القرية، ويقول إنه لا يصدِّق أن يكون في الدنيا أناس يقطعون بتلك الضراوة والوحشية قوائم بهائم بكماء، لا تعطي سوى ما يفيد الإنسان، كانت مخلوقات الله تخور وتتضرع إلى الله، والزبانية الوحوش يقطعون قوائمها وكأنهم يحطّبون الغابة.

أصبح استيتو يقول إنه منذ تلك الليلة لم يعرف النوم وأنه لولا خوفه من العريبي لبلَّغ عنه. منذ ليلة المجزرة لم تعُد تفارقه صورة العفاريت وهي تتنقل بين دماء الضحايا لتُسيل دماء أخرى. غاب عنه النوم ليلاً ونهاراً إلى أن ضبطته الوحوش في ليلة موالية فقامت بتكبيله، وتكميم فمه، وجعله يخلد للنوم مرغماً داخل كومة تبن قبل أن تشتعل الكومة ناراً. شاعَ في القرية أنّ العريبي ورجاله كبَّلوا استيتو، كمَّموا فمه، ورموه قلب التبن قبل أن يشعلوا النار.

أردَفَ رفيقي الزمّار:

وحش يفتك بالبهائم بتلك الطريقة، يُتوقع منه ما هو أغرب تجاه مَن تجرّأ على إعلان عشق أخته أمام الملأ.

***

لم تتوانَ عمّتي عن الكلام ورفع رأسها إلى السقف:

أوقَفَ العريبي الحفل وهو يرسم على ثغره ابتسامة لم نُدرِك مغزاها. أدّى لنا أجرتنا وزوَّدنا بعلاوة ورحَل.

قاربَ الفجر على الانبلاج حين شرَعْنا نستعدّ للعودة. أصرَّ أخي على أن لا يرافقنا عند عودتنا. ونحن نعرج على الطريق الجبلي المفضي انحداراً إلى قريتنا، والصبح يكاد أن يتنفس، استوقفنا رجالٌ ملثّمون يحملون بنادق وسيوفاً. صوتٌ راعدٌ للعريبي من فوق رؤوسنا زَلزَلَنا:

أين ذلك الديك الأسود المخصيّ الذي تجرأ على شرفاء الجبال؟

نزَعَ كلمات بحنقٍ من بين شفتيه وتابع:

لم أصدِّق أن ديكاً مثله يعيش من صراخ صوته يجرُؤ أن يُسيء لشرفي. أهنتُموني في عقر جبلي.

الفَزَع جعلني أصحو من دوخة السهر وألم الرأس، قلت له لعلّ قلبه يلين:

حكمة أجدادنا تُوصي بضرورة الغناء للجبال حتى تتوقّف عن صمَمِها، وتفسح لزهرات الجبل أن تظهر وتنمو.

حاول مرافقَيّ أن يثنيا العريبي عن تهديداته. قالا له إنّ الجوقة غنَّت كما يتطلَّب إحياء حفلٍ وجيهٍ مثله.

عرفت أنّ اللحظة تحمل هبّات الموت. الصخور الصماء بادلتنا غناءنا عن الحب بالموت. ما كانت مقاومتنا ستنفع، ولا هروبنا. توسّلنا للرجل. طلبنا منه العفو. لم تنفع محاولاتنا في ردعه من التمادي في لجّة غضبه. رجَوْته أن يسامح أخي. اقتربتُ منه قبَّلتُ يده، وقلتُ له إنْ كنا قد أخطأنا فها نحن نكفِّر عن ذنبنا ونطلب غفرانك ونطلب منك يد أختك شامة لأخي.

كنت مدهوشة ومصعوقة أرتعد حين ردَّ عليّ:

لبؤة من عرين العريبي قد تعشق وتتزوج نمراً إنْ لم تجد أسداً، أمّا ديكاً مخنثاً متزوّجاً فلا.

هَدَرَ غضباً:

ما أنتِ إلّا أخت مجنونة لنذلٍ يقضي أيامه في نَظْم كلامٍ تافه والنفخ في المزمار. لولا أنك دجاجة مغلوبٌ على أمرها يقودُها ديك ممسوخٌ لكنتُ شتَّتُ دمك على الصخور، وأهديتُ لحمك لأفاعي البحيرة السوداء.

حاولنا استعطاف الرجل مرة أخرى. استعطافنا زادَ ناره اتّقاداً. بإشارة تعلن ازدرائنا أمَرَنا أن نصمت وهو يستفسرنا عن مكان أخي. أمام جوابنا بعدمِ معرفة مكانه، أرفَقَ زخات نظراته المحترقة غضباً برصاصة في الهواء من بندقيته قبل أن تنهال على صدرَي عبد السلام وأحمد زخات من رصاص بنادق رجاله. دماؤهما صفَعَت عيني ووجهي وأنا أستغيث وأترجاه.

آخر ما تذكَّرته هو بحرٌ من سائل أحمر دَبِق تعوم فيه عيناي قبل أن أصرخ وأرتمي محاولة القبض على صدره. بكلّ قوّتي مزَّقتُ عباءته قبل أن تنتزعني ضربة قوية على رأسي أفقَدَتني وعيي. استفقتُ بعدها، فوجدتُني محمولة على ظهر بغلٍ وأنا لا أرى سوى جمار ودماء من لون أحمر قانٍ.

غاب أبي وطارت شامة، ذلك ما أكَّده أهلها وأهل قريتنا. لم نعرف إنْ كانت الأرض بلعتهما أم السماء رفَعَتهما.

ظلّ اختفاء شامة، ووقتُ اختفائها لغزاً يحيّر الجميع. أمها قالت إنها اكتشفت غيابها بعد انتهاء الحفل. بلعتها الأرض أو امتصَّتها السماء هكذا قالت نائحة قبل أن تضيف أنّ أخاها العريبي لا يمكن أن يقتلها. تعاطَفْت بعض صبايا القرية مع شامة في قصّة عشقها وفي تمرّدها على جبروت إخوتها، حتى إنهن أطلقن عليها لقَب زهرة الجبل.

خرج رجال القرية للبحث عن المختفيين مستعينين بالكلاب. طافوا ثلاثة أيام بين الجبال والغابات. مرَّروا أنوفهم وأنوف كلابهم على فوهات الآبار الصخرية العميقة، التي تمتدّ كثقوب واسعة على سجادات صخرية رماديَة، والتي تستطيع أن تبتلع بقرة فلا يظهر لها أثر.

أهل القرية الذين شاهدوا العريبي ورجاله يبحثون عن أخته، تملَّكهم شكّ في أن يكون الرجل قد قتل العاشقين وافتعل البحث عنهما .

***

لم يطُل بكاء عمّتي على حالها. هدأت، ابتلعت آلامها، تقبّلت قدرها وبدأت تتعوّد على عماها. صارت تتناسى ألمها وتحاول أن تتأقلم مع حالتها وإن أضحت عصبية المزاج. تتأسى وتقول عن حالها إنه ثمن نثر أصوات الروح على حجارة بكماء مستميتة على صممها.

سكَننا انتظار عودة أبي. أصبحت أمي معظم الوقت ساهية تقول في حزنٍ إنّ ناراً حمراء تقيد في جوفها، وإنها حائرة، فلو عرفت أنه قُتل لسامحته أمام الله، أمّا إن كان قد هرب مع معشوقته وتركنا لوحدنا في كدية الريح فوالله لن تسامحه أبداً. تلعنُ حظّها ووالدي ذا الوجه الخمري، والعينين الملوّنتين بالأخضر والكستنائي الفاتح، الذي أغرقت قلبها بحبّه، ولم تجنِ منه إلّا خيبة قاتلة. تشتكي لمَن يزُرْنها من النساء وتتساءل كيف ستعيل لوحدها بنتاً وأختَ زوجٍ أضحَت عمياء.

كلما عَلمَت عمّتي أنّ مجموعة من النساء اجتمعن في بيت ما إلّا وتحمل الدفّ، وتطلب مني أن أقودها. هناك تشرع في الغناء، تُذَكِّر بأخيها، تترحّم على رفيقَيها في الجوقة، تهجو العريبي وتتأسَّف لعماها لا لكونها حُرِمَت من النظر إلى الدنيا فقط، بل لأنها لم تعُد تستطيع تمييز العريبي الداعر حتى تنزع خصيتيه وتقتلع جذورهما. تشتكي من عماها وتدعو الله القادر على كلّ شيء أن يردّ لها ألوان عينيها لتنتقم وتشرب دم مَن تسبَّب في عماها، وضيَّع أخاً عزيزاً عليها.



حضور فقيهٍ معالجٍ إلى بيتنا حدثٌ لا يُنسى. أحضره جار لنا من سوق بعيدة عن قريتنا. فور وصوله طلب فطوراً من بيض مقلي بالسمن. بعد الصلاة وضعَ الرجل رأس عمَّتي بين رجليه فتح عينيها وأدخل مشرَطاً من نحاس. كانت عمّتي تصرخ وأمي تدعو لها وللشيخ المداوي.

اقتنعَت عمّتي أنها ستُشفى قريباً، وأنها سترتاح من سفك الألوان الحمراء المدماة التي تغزو عينيها ليل نهار، فقد أخبرها المعالج أنه بعد اللون الدامي سيعمّ عينيها لون البياض، ثم يسبح فيهما السواد، قبل أن تعود لعينيها كلّ الألوان التي انطفأت. في الغد أكَّدَت أنها صارت ترى لوناً أصفر وأنها في طريق الشفاء. من شدّة فرحتها راحت تزغرد، وتغني وتصيح وتقبِّلُنا وتقبل معزنا. لم تأبه بتعلّقها بتَيْسِهَا الكبير السمين الذي كانت ستنحره يوم عيد الأضحى حين قدَّمته ثمناً لخدمة الفقيه المداوي.

طلبَت الكحل وكحَّلت عينيها، ادَّعت بأنها ستغري أوّل رجل تراه عيناها حين يعود إليها بصرها. لكن الألوان الصافية التي حلمت بها حلَّت ألواناً متسخة، يُهيمن عليها لون أسود يتخلّله أصفر باهت يجرح بصرها من الداخل، قبل أن تعود عيناها تسبحان في ظلال لون دام. صار غضبها يتفجّر شلالات وهي تتلمَّس طريقها حين تأكَّدت من ذهاب بصرها دون رجعة. حرارة تغزو رأسها ويضيق صدرها. تُقسم بأنها ستنزَع خصيتي العريبي وخصيتي الفقيه المعالج وتمزِّقها بأنيابها إن التقت بهما، ثم تترجاني أن أكبر سريعاً لأقودها إلى غريمَيها.

دلَّتها محنتها على اكتشافٍ مثيرٍ لسرّ حاسة الشم. صارت تحتفظ دائماً بقلّة صغيرة من ماء زهر البرتقال. كلّما أحسَّت بضيق ممّا هي فيه تفرغ قليلاً من السائل على كفيها وتمرِّرهما على وجهها وهي تقول:

إنّ الله يعوّض عباده المؤمنين. رائحة ماء الزهر تُعيد لي روقي وتوازني. لم يخلق الله الزهور والورود عبثاً، خلقَها لنحتمي بها من القنط والملل وقسوة الحياة.

تتوجّه نحوي لتقول لي:

لقد أمدَّنا الله بقوة لعشق الحياة رغم أنها تجافينا. نكاية بجفائها سأظلّ أحبها رغماً عنها. متى كان الحبّ من طرف واحد محرَّماً؟

تدّعي أنّ الروائح الزكية تفتح في عقلها طريقاً من النور تجعلها تعبُر جنائن من الزهور بإحساسٍ نديّ يرش قلبها، يُنسيها عماها وعمى الدنيا.

وجدت في استنشاقها لماء الزهر ترياقاً يُنسيها حتى رغبتها في الزواج. تردّ على كلّ مَن تحاول أن تلمز لها بعدم زواجها:

شذى ماء الزهر يُبعد عني حاجتي للرجل.

وإذا ما لاحظَت حزن أمي وشرودها تنصحها:

استنشقي جيداً ماء الزهر، قطِّريه داخل منخريكِ. لن تحتاجي إلى ريحة رجل.

وحين يشتدّ بها الضيق تبحث عن دفّها وقبل أن تبدأ نقرها عليه، وترديدها لما تحفظه من أغانٍ تكرِّر على مسامعنا:

إنّ الله لم يهدِ البشر إلى الغناء عبثاً... إنها حكمته الكبيرة.

حتى نضمن لعمّتي ما يجعلها ترى بطريقتها وتنسى رغباتها على طريقتها، أصبحنا نحافظ على الدفّ بمكانٍ خاص، كما صرنا ملزَمات بالاحتفاظ بقارورات من ماء زهر البرتقال أو الرنج. حين كنت أرى أمي تتعطّر به أتساءل إن كانت ترغب في نسيان رائحة أبي ما دامت هي سليمة البصر.

أنا لم أكُن لأنسى أبي ولو فتحت قارورة ماء زهر وصبَبْتُ على كفّي كلّ محتواها وغسلتُ به وجهي. ذكرى أبي كانت تزعزع هدوئي وتجعلني أغرق في الأسى. أسى طغى علي عشيّة عيّرتني كنزة، فتاة تَرعى ماعزها بالقرب مني في الغابة، بعدما اقتتلت معزتان لنا، بأنني بنتُ رجل خائنٍ هجرنا مع عشيقته، وبأننا سنحيا الحياة جحيماً لأننا نساء دون رجل. عدت يومها من الغابة مانعة لدموعٍ أطلقتُ لها العنان بالقرب من عمّتي وأمي.

نهَرَتني أمي بأن أوْقِفَ دمعي:

ها هو غاب عنا أو غُيِّب عنا، أتظنّنا سنموت من عدم وجوده؟

وكأنّ أمي كانت تنفث حنقها، واصَلَت قائلة وهي تزداد غضباً واضطراباً:

- أبٌ غير مهتمٍّ بنا وجوده كعدمه. إننا نحيا من دون وجوده كما كنّا نحيا بوجوده. إن الله خلقنا لنتدبَّر أمرنا ونتحمّل أهواء الدنيا لوحدنا. ما علينا سوى أن نصبر ونعيش ما كُتِبَ لنا.

تتابع في غمغمة:

لا أعلم أننا اقترفنا جُرماً في حقّ والدك. لا أتذكر أنني قصَّرت يوماً تجاهه.

علّقَت عمتي:

- وجودُ ولوّ ظلّ الأب يُساعد على الاطمئنان والإحساس بالأمان، ولو أنّ حياة النساء أفضل دون رجال.

عادت أمي تواصل كلامها في غبن:

لم يعُد لنا من خَيار للبقاء في القرية. علينا الرحيل. أحسّ أنني أصبحتُ أضحوكة بين أهل القرى وأنني كنت ضحية خيانة كبيرة من طرفه.

تقاطعها عمّتي:

- الغائب حجّته معه، قد يعود ويكذِّب ما أثير عنه من إشاعات.

تشرد قبل أن تتابع:

هذا إذا لم يكُن العريبي قد قتله.

بأسى واضح حدَّقت أمي نحوي وفاهَت:

- غيابُ الأب وأنتِ صغيرة سيجعلك تكبرين قبل الأوان. علينا أن نتحمّل. هذا قدرنا.

ختَمَت قولها بأنه علينا منذ الآن أن نتهيأ للعمل، ونعتمد على أنفسنا من أجل أن نعيش، قبل أن تطلب مني أن أتوجّه إلى النوم للنهوض باكراً، فأيام الصيف هاته جدّ حارة، وأوراق أشجار الغابة صارَت جافة يصعُب على الماعز مضغها. تضرّ بصحتها، وتصيبها بإسهال حاد. علينا النهوض باكراً والصعود إلى الجبل العالي لحطب أغصان الزيتون البري التي تشتهيها الماعز.

عمَّتي راغبة أن تُذيب ما تلبَّد حولنا من غيوم الهمّ حَمَلَت دفّها وأطلقت العنان لحنجرتها بأغنيتها المفضلة:

- زْمْمْ ونَا نْوْدّي... هَذَا مَكْتُوبْ رَبي.
سجل وأنا أؤدي... هذا ما كُتِبَ علينا.

انطلقت عمتي في الغناء، ونحن نردِّد بعدها، فنسينا النوم وانداحت أصواتِنا من غرفتنا لتنسكب في قلب الليل المحيط ببيتنا، وعلى النهر الجاري أسفل التلّ. آهات أمي وعمتي التي أستشعرها تنفلت مع ترديداتهما لكلمات الأغنية جعلت نفسي تغرَق في أسى جميل، وتغيب روحي رقراقة مع ماء النهر وأنا أهيئ نفسي للعمل وللاعتماد على النفس من أجل أن نحيا، وأنا أهيئ نفسي لنرتقي الجبال في الصباح نحو الشجرة الأفعى.

يتسابق أهل القرية للسيطرة على أشجار الزيتون البري القليلة النابتة بين صخور الجبال العالية، ويحدّدون تلك التي يعتبرونها أشجاراً في ملكهم، يضعون عليها أرشاماً ويدافعون عنها وقد يتقاتلون من أجلها.

والدي قبل أن يغيب عنّا كان يحطِّب للماعز، أو يؤجر صبياً من صبيان القرية ليقوم بإحضار الكلأ وأغصان الأشجار الطرية لها. نحن لم يعُد بإمكاننا أن نكتري صبياً. علينا إطعام الماعز، أمّا البقرات فكان والدي قد قادَها إلى وادي الزهور بين الجبال قبل اختفائه.

ارتقيتُ الجبل العالي مع أمي للوصول إلى شجر الزيتون البري. بيوتُ القرية صارَت تتبدى قبعات صغيرة من البردي تتفرّق على تلال يخترقها نهر ينبع من قلب الجبل. في الطريق تتعالى صخورٌ ضخمة كأسوارٍ عملاقة يطلّ بعضها على منحدرات عميقة. تسلّقت خلف أمي الممرّات الضيقة وهي تحمل عشابة من حديد، وتمدّ يدها لتنتشلني حين تعوقني الشجيرات والأحجار.

أشجار الزيتون وُضِعَت عليها علامات من الجير تشير إلى مَن يملك الحقّ من أهل القرية في حطب أغصانها. وحدها الشجرة النابتة في خصر صخرة عملاقة والممتدة أفقياً على فراغ

رهيب لم يتمّ تمييزها.

تنبعث الشجرة الضخمة بجذعٍ يلتوي قلب الفراغ، وتمتدّ منه فروع كبيرة تتمطى وتتطاول في الهواء على منحدر عميق، كأفاعي عملاقة تنفث رهبتها تجاه السماء. مَن يرغب في أن يحطِّب منها عليه أن يعبُر إلى الفروع الرقيقة التي تتفرّع منها أغصان الزيتون المشتهاة من الماعز.

قصَدَت أمي الشجرة التي ينفُر أهل القرية من ارتقائها. نزَعَت منديلها من على خصرها وجمعت حواشي قفطانها، علَّقت البتارة في وسطها بحبل وبدأت تزحف على جذع الشجرة، الذي يطلّ على المداشر الممتدة بعيداً، لتصل إلى الأغصان اليانعة.

بخفَّة شرَعَت تحطِّب الأغصان المثقلَة بالأوراق الخضراء وحبّات الزيتون الصغيرة وترمي بها بقوة نحوي. بعضها يتهاوى بعيداً على المنجرف الصخري ويضيع منّا. توقفت بعد أن جمعت كومة كبيرة من الحطب وبعد أن كان حلقي قد جفّ من خبط قلبي بسبب خوفي من أن تسقط عن الشجرة.

نكوِّم الحطب في رزمتين. تحمل أمي الحزمة الكبيرة على ظهرها. يختفي عني معظم جسدها حين نشرع في العودة فلا أرى سوى قدميها وهما يتشبثان بالأرض من ثقل ما تحمله. تبدأ محنة خوف تمزِّقني حين أشرع في جذب الحبل إلى الخلف الذي يلفّ كومة الحطب على ظهرها، أجذبه نحوي حين تبدأ في الهبوط حتى لا يتغلب عليها الحمل الثقيل فتهوي على وجهها بين الصخور.

يوم انزلقت قدماها وشرعتُ أشدّ الحبل بكلّ قوتي وأنا أتمرّغ في التراب بين الصخور وفي الهلع، وكأنني أعلم أنّ قوتي وشدّي

لن يُسعفاها إنْ هي تدحرجت، وبعد أن استعانت بيديها ونهضت، استدارت نحوي وانتشلتني من بين الأحجار والأشواك، مسحَت دموعي وهي تشير بأصبعها إلى نقط بعيدة بيضاء تطلّ على زرقة البحر الذي يمتد إلى حيث تصعد السماء كحائط مائل بلون الماء الأزرق وهي تقول لي:

اصبري يا ابنتي، انظري هناك، هناك بعيداً حيث تلك النقط من البياض هناك البلدة التي سنعبُر منها إلى المدينة لنتخلّص من هذا الشقاء.

مسحتُ دموعي ساعتها وسألتها:

متى يا أمي سنرحل؟

أجابتني:

بعد أن نوفِّر بعض المال لنؤدي به نفقات الرحيل والكراء والمأكل قبل أن أحصل على عملٍ هناك. أترجى الله أنْ أفي بوعدي قبل أن يقطع نفسي.

في الطريق كنت أبدِّد خوفي بالدعاء إلى الله حتى نعود سالمتين. طالَ توجّهنا إلى حطب أغصان الشجرة. تعبي كان يقابله فرحي بأننا صرنا كباقي أهل القرية نملك شجرة للزيتون البري. صرتُ أحكي لصبايا القرية بفَخر عن شجرتنا الكبيرة، وهكذا أصبحَت الشجرة الأفعى ملكاً لنا بعُرْف أهل القرية، لا يحطِّب منها أحد، ليس احتراماً لنا فحسب، ولكن خوفاً من المغامرة باعتلائها واعتلاء الريح والسماء والفراغ والهاوية معها .

لا طير يطير ولا إنسان يسير. وحدنا نثر غباراً أحمرَ خلفنا ونحن ننهش الطريق المغبر للوصول إلى حقلٍ بعيد لبدْء اليوم الأول لعملنا. الحقل بعيدٌ عن قريتنا وعلينا أن ننزل من مرتفعات التلال إلى امتداد السهول غير بعيدٍ عن البحيرة السوداء.

كانت جارتنا نعيمة قد استعطفت صاحب حقلٍ كبيرٍ للقمح بأن يشغِّلنا أنا وعمّتي وأمي عنده. حكَت له عن حالنا قبل أن يقبَلني أنا وأمي، ويرفض عمتي لعماها.

توجّهنا للّقاط في الصباح الباكر قبل أن تأكل الدواب الفالتة من معاقلها السنابل المتساقطة من مناجل الحصادين، وقبل أن تصبح الشمس حامية. لكن الشمس في تلك الأيام من الصيف تصبح دائماً ملتهبة لتحتدم حرارتها مع طلوع النهار.

قريباً من الحقل الشاسع تتراءى سنابل القمح التي لم تُحصد بعد مكتنزة ومصفرّة تلمع. أوراق الأشجار لا تتحرك والدواب بالكاد تتنفس. اختبأت الحيات والحشرات مذعورة تحتمي بالظلال. كلّ شيء أخرس، وحدَها الشمس تتكلم وتصرخ لهباً فتردّ عليها الجنادب والصراصير استغاثات متواصلة من شدّة لطم الحرارة عليها. حين

أمدّ يدي لالتقاط السنابل الملقاة على الأرض يهبّ لهيبٌ حارّ من بين التراب.

من عادة النساء الاستعانة بالتّعْييعْ خلال القيام بأعمال منهِكَة، نداءات تهدهد الروح تطلقها إحداهن فتردّ عليها الأخريات بزغاريد طويلة. ولا امرأة واحدة في هذا اليوم استطاعت أن تفتح فمها لتمدّ صوتها.

ترتطم أرجلنا بتيجان سنابل القمح المحصودة فتجرح سيقاننا. خلفنا يجيشُ غبار أحمر جافّ متصاعد من تربة حارقة جفَّفتها حرارة الشمس. كنا نحاول أن لا نتخطّى أيّ سنبلة سقطت سهواً من بين أيدي الحصّادين، أو لم تطَلها مناجل الحصاد.

في آخر النهار نستلمُ ربع ما جمعناه من السنابل الفالتة. تقول لي أمي إنه في الزمن الصالح لم يكُن هناك من حصص للّقاط. أصحاب الحقول كانوا يدَعُون النساء اللاقطات يأخذن كلّ ما التقطنه من سنابل، ويقومون بتزويدهن بالماء والخبز واللبن. أما الآن فلقد أصبح أصحاب الأرض جشعين ولا ندري لماذا.

تقوّس ظهري من الانحناء والتعب. الأرض التي أمشي عليها تلتهب كبوابة فرن. قدمي كأنها تهرأت رغم أنني كنت أربط قماشاً من كتانٍ غليظ على حذائي البلاستيكي. لا تملك بعض النساء نعالاً، فتشد على قدميها رقع كتان.

لم تطُل مقاومتي. في اليوم الثاني أحسستُ أشعة الشمس تنزل لطمات من الهجير، تنخس وَقْدَتها اللاهبة أطرافي وتستبد بجسدي. شَمْسيتي لم تعُد تقيني من الشمس التي تنزل ضرباتها بإصرار

على رأسي، والمنديل الذي كنت ألفّ به رأسي لم يعُد نافعاً. جبيني يلتهب من الحرارة كما تلتهب الأرض التي نمشي عليها. زيغ في نظري. كلّ الألوان أراها صفراء تشتعل، لون الشمس، لون السنابل ولون النحل. أبحثُ بعيني عن أزهار بألوان أخرى داخل الحقل الواسع الأصفر. وحدها شجرة تين وحيدة قلب الحقل، وأشجار الغابة البعيدة عنّا فوق التلال كانت بلون الرحمة، باللون الأخضر.

سخونة تملأ رأسي، بل رأسي قدْرٌ يغلي. بيضة ملتهبة داخله. لم أعُد أستطيع تحريكه، غثيان وألمٌ شديد. دوخة كادت تُفقدني توازني. أغلق عيني. ناديتُ على أمي. أفرغتُ ما في بطني وتقيّأت أمعائي ورعشة تهتك بي. تساءلتُ إنْ كان هذا هو طعم الموت.

رفعتني أيادٍ لتضعني على ظهر أمي التي مشت بي خطوات قبل أن تضطر إلى التوقف. هرعت نسوة إلى مساعدتها وإنزالي من على ظهرها. حملنني ومدَدْنني تحت شجرة التين قلب الحقل، ألوذ من الحرارة بفيء أوراقها. بدأت أمي تنقع منديلها في الماء وتمرِّره على جبيني.

جادت عليّ إحدى النساء بما تبقّى لديها من لبنٍ في جرتها. كان طعمه شديد الحموضة. شربتُ بلهفة. حموضته خفَّفت من عطشي.

غابت الشمس وشرعت النساء اللاقطات في العودة إلى بيوتهن وبقيتُ ممدَّدة لا أستطيع الحركة. خوفاً من المبيت في العراء وضعتني أمي قلب كومة تبنٍ قرب الشجرة. بعد درس السنابل كانت أكوام التبن تظلّ مكوّمة في الحقل قبل حملها إلى المخازن. في انتظار أن تنتهي عملية الحصاد يتّخذها بعض الفلاحين العاملين ملجأ للمبيت.

غُصنا في داخل التبن حتى لم يبقَ يظهر منّا إلّا الرأس.

أتمنى لو يسرقني النوم من ألمي وضجري. كانت غفواتي متقطِّعة. أسرقُ لحظات من النوم فأرى نفسي على تلّ من رمل حارّ تحوم حولي طيور من جليد. أغنّي لها، وأترجّاها أن تنثر عليّ ثلجها. ترمي عليّ حبات ثلج. أمدّ يدي للقبض عليها. تتحوّل حبات الجليد إلى قطرات من فضّة مصهورة بالنار، جمارٌ من جهنم، تكوي عظامي من شدّة حرارتها.

لسعاتُ برغوت التبن المؤلمة تلدَغني. حشرات صغيرة جداً تغوص في الجلد فلا تظهر إلّا كنقطٍ حمراء تؤلم وتهيج الجلد، أحكّ وأحكّ لكنها لا تتزحزح. أحكّ حتى صار جسدي بقعاً كوخزِ إبرٍ محمرّة منتفخة ومدماة.

بين محاولة النوم وارتفاع حرارتي والهرش الأليم كانت دغدغة غريبة تسرح على صدري وعلى نهدي الصغيرين. فرك بأصابع خشنة تُنعشني بطريقة فيها ألم واعتصار وضغط مُوْجِع ولذّة ما. استمرّ الحكّ الغريب وأنا بين النوم واليقظة أشكر أمي التي تساعدني في هرش جسدي.

نزلت الأصابع إلى بطني وأسفل بطني، قبل أن أستيقظ على صراخ أمي وملامح رجل بعمامة يتمدَّد بالقرب مني وسط التبن.

كانت أمي تصيح وتعاتب الرجل الذي كان يقول إنه يساعدني فقط على حكّ جلدي ليخفِّف عني. كأنني بين الموت والحياة لا أستطيع الكلام. الأصوات تتلاطم حولي. صيحات أمي واستنكار مَن استفاق من الرجال المحشورين في أكوام تبن أخرى.

خارج كومة التبن مدَّدتني أمي على منديلها تحت شجرة التين وجلست بجانبي. أرتعش بين حرارة قوية وبردٍ راعف وأزيز الناموس وطفح وانتفاخ جلدي.

مع الصباح حضرت عمتي التي أخبرتها نساء القرية بحالتي مرفوقة بجارتنا ميمونة. اعتزمتا حملي والعودة بي. لكن الشمس كانت قد حميت فطلبَت منهما أمي أن ننتظر الغروب. ظللتُ مستلقية تحت شجرة التين وعمَّتي ترطِّب جبهتي بالماء البارد بعدما توجَّهت أمي لإتمام عملها في الحقل. برَدَت الشمس فانطلقنا. تطوَّعت ميمونة لتتناوب مع أمي على حملي.

في الطريق كنتُ منهَكَة وأنا محمولة على ظهر المرأة التي كانت أنفاسها تُسمَع تَعِبَة من ثقل حملي. برودة وحرارة يتلاعبان بجسدي. فتحت عيني، رنوت إلى السماء، كانت تمتدّ سقفاً مكلَّلاً بسكونٍ خاشعٍ مهيب، تتشبَّث النجوم في مداه وتتلألأ فوق الجبال الصماء وفي الأفق البعيد. بانت لي النجوم فوانيس معلّقة والقمر صينية من لون أحمر ناري. مَن يحملها وكيف تجري بعض أضواء الفوانيس حين تكون السماء صافية؟

على حصيرة البردي داخل بيتنا ظللتُ ممدَّدة ومغص يقطِّع بطني. أمي تتألم ولا تشكو، ربما حتى لا تُثير شجني. كنت أرى الألم في عينيها المهدودتين.

عمّتي في غمرة القلق تمسِّد جبيني بقماشٍ مبلَّل وتكلّم أمي:

ما إن أضعُ القماش على جبهتها حتى يصير ساخناً.

عِيْلَ صبر أمي، أوقفت دعواتها وصاحت باكية:

- هكذا ضاع مني ابني مضطفى. يا رب... هكذا ضاع مني.

خَدَرٌ يغيِّبني عن وعيي. أستفيق على نواحِ أمي وهي تسرد حكاية موت أخي مصطفى في ريعان طفولته من فرط ارتفاع حرارة جسده. سمعتُ هذه الحكاية منها مرات، اختلطَ عليّ الأمر ساعتها إن كانت تُعيد سردها من جديد أمامي أم أنّ ذهني وقد حلَّت به نزعات ما قبل الموت هو الذي يُعيد سردها عليّ.

تغرِّد أمي، في قريتنا يُقال إن المرأة تغرِّد حين تكون تبكي بحرقة وهي تحكي عن ما أبكاها. تغرِّد مقلِّدة صوت أخي:

أيها الناس ألم تروا أبي الذي ذهب ليغنّي للجبال حتى ترقّ قلوبها علينا؟ ليته لم يذهب، لقد تركني مريضاً. إنني في حاجة ليعزف لي على مزماره. إنْ التقيتم به أخبروه بأنني مريضٌ جداً وبأنّ أمي تبكي لمرضي ولطول غيابه.

تتابع أمي تغريدها:

كان مصطفى في الخامسة من عمره، رحَلَ والدكِ يومها عن البيت لينشط احتفالاً في قرية بعيدة عن قريتنا. كانت الشمس تلسع الرؤوس وكنت مضطرة أن أذهب إلى التقاط حشائش وعشب لبقراتنا. عمّتك كانت ترعى الماعز ولم أجِد مَن أترك مصطفى معه. حمَلته معي ورغم أنني أمَرته أن يجلس تحت ظلّ شجرة إلّا أنني ندمتُ مدى الحياة على قرار حمله معي. لم أعِر اهتماماً وقتئذٍ للشمس وهي تستعرُ في كبد السماء. عدتُ وابني جمرة بين يدي أكتوي بلظاها. في الغد لم تهدأ حرارة جسمه. خرج وقبَع جالساً على صخرة تطلّ على الطريق يسائل مَن يمرّ عن أبيك. أدخلته بعدما

عدتُ من الطاحونة والليل قد لفَّ الطريق والصخور المنتصبة على جوانبها. قلتُ له إنّ والده سيحضر غداً. وحده اشتداد المرض كان حاضراً في الغد، اشتدّت حرارته. بعد الغروب ظلّ يرتعش من البرد وحرارة تشوي جسده. حمى شديدة.

تتغنى أمي بجماله، تردِّد أقواله، قبل أن تذمّ ارتفاع الحرارة حاملة الموت، وتدعو عليها بأن يقطعها الله من الدنيا حتى تهنأ مخلوقاته من شرّها. تواصل تغريدها وهي تحكي تفاصيل الساعات الأخيرة لمَرَضِه وكيف كَوَته الحرارة قبل أن تغادره الروح، وكيف لم تنفعه تميمة إمام مسجد القرية الذي حضَر ليرقيه، ولا النذور التي قدَّمتها إلى ضريح سيدي رشون. أخذه الموتِ وأمي تولول وتلعن غياب الأب. تندب حظّها وتقول لو كنّا في المدينة لما مات أخي لأن هناك طبيباً يداوي حالات مثل حالته، ولو كان الأب موجوداً لأسرعنا بالطفل إلى مشفى المدينة.

تغرِّد من جديد وتصفُ كيف رحل بسرعة وهي لم تفِقْ بعد من الدهشة، وكيف سرَقَ منها العدو -الحرارة المرتفعة- ابنها الوحيد، الذي لم تُرزق من بعده بولد ذكر آخر، ولم تلدني إلّا أنا.

خابَ رجاؤها حين أتيتُ أنثى. كم تمنَّت أن أكون ولداً أعوِّضها مصطفى .

التقطتُ منها وأنا في سهادي المرضي استغفارها من الله وأنها تحمده على ما رُزقَت به ولا تتمنى سوى أن تشفى ابنتها الوحيدة.

أحمدك يا الله على ما ابتليتُ به. أنا يا ربي لم أشتغل باللقاط إلّا للضرورة والحاجة.

تعانقني حين تراني أحدِّق فيها بعينيّ المكدودتين وتقول لي: مصطفى الآن عِصفور في الجنة.

أتخيَّل أخي عصفوراً ملوّناً يطير. أودّ أنَ ألحق به، أن أصير عصفورة في الجنة، لكنّني إن لحقت به سأموت وستبكي أمي وعمّتي كثيراً.

أجمع قوتي من بين ما يسحقني من حمى، أتطلّع إلى أمي من بين أجفاني شبه المغمضتين وأكلِّمها:

لا أريد أن أصير عصفورة في الجنة. لا أريد أن أموت.

قدَّمَت لي مرق دجاج ليُحييني كما قالت. كان هو دواؤنا الوحيد من كلّ الأمراض والعلل الكبيرة والمميتة. شحم الدجاجة جفَّفته عمتي فوق النار ثم دأبت على تدليك عنقي وجسدي به لأيام.

الحرارة هجرتني. تعافيتُ وإن ظللت شاحبة الوجه. بعدما شُفيت وخرجت من إطلالتي على الموت كما كانت أمي تصف حالتي، صرتُ ألوم نفسي لأنني ولدت بنتاً ولم أولد ذكراً أعوِّض أمي فقدانها لابنها.

عمّتي كانت ترى في خروجي من إطلالتي على الموت عناية ربانية لأَكْبُرَ وأنتقم لها ولأبي من العريبي. أمي كانت تقول إنها امرأة المغدورين وإنه لو كان أخي مصطفى على قيد الحياة لانتقمَ عندما يكبر ممَّن غيَّب أباه. وحين أردّ عليها بأن والدي ربما لم يُقتل تحني رأسها وتصمُت، تدعو لأبي بالرحمة إن كان قد قُتل وبالشفاء من مرض الحب وطيشه والعودة إلى بيته سالماً إن كان حيّاً.

لسببٍ غامض لم أكره أبي ولم أكرَه شامة. على العكس سكنني حنين قويّ نحوه هو الذي غيَّبه الغياب الغامض. كنت أقنع نفسي:

ألم يكُن يغنّي للجبال الصماء لتردد الصدى؟ أَوَليس الغناء للصمَم عملاً كبيراً كما يدّعي أهل القرية؟

اشتياقي إليه كان يتأجّج أكثر حين يتلوّن أفق السماء بإطلالة رمادية للسحب التي تغطي الجبال المشابهة لها في الألوان، ممّا يجعل حنيني الغامض يُزهر ويتورّق ويصنع أجنحة لخيالي.

صرتُ مهووسة كفتيات قريتنا بصدى صوت والدي وشامة. كنّ يردِّدن أنه إذا كانت جبالنا لا تردّد صدى الأصوات، فالرياح تعاندها وتعزف مع هبوبها صدى غناء والدي وعشيقته. أصيخُ سمعي وأنا

أرعى الماعز. صدى غنائهما يُغازلني حين تُظلِّل الغابة سحب كثيفة، ساعتها يرنّ عزف مزمار أبي في أذني.

ظهور قوس قزح في سماء قريتنا بعد إشراق شمس ما بعد مطر خفيف عابر، أصبح بالنسبة إلى صبايا القرية إطلالة لروح شامة التي اعتبرنها عروس المطر.

لم أكُن أعرف ساعتها أأفرح أم أحزَن حين تتطرق الفتيات إلى قصة الحب التي سبَّبت لأمي ولعمتي الكثير من الألم، ورمَت بي في غموضٍ يحيِّرني.

نساءُ قريتنا وفتياتها كنّ مغرمات بعروس المطر التي كانت تزورهن ليلاً لتعزف على أوتار أجسادهن أنغامَ لَذّات يصبحن على إثرها نشوانات. كانت تزور كلّ مكلومة بفقدان زوج أو حبيب، وكلّ أنثى يمرّ فصل ربيع عمرها وهي وحيدة من دون رفقة.

تحكي الفتيات أنّ عروس المطر تصاحب كلّ مَن بَلَغَت سنّ الزواج ولم تتزوج بعد، وكلّ امرأة ترمّلت باكراً قبل أن ينقطع حبلها من حبل الرجال، فتظلّ تتألم من غياب الرجل. تزورها العروس في لياليها، وبين الحلم واليقظة تدغدغ أحلامها وقلبها، وكما تحضر بين اليقظة والحلم متستِّرة بأشواق المرأة المحرومة وحفيف الليل، تنصرف بين اليقظة والحلم والمرأة المَزورة تلملمُ سعادتها ما بين الأحلام واليقظة.

عمّتي كانت تستفيق من احتلامها أحياناً في الصباح وتشكر عروس المطر الليلية لأنها دغدغت أشياءها الحميمة التي هي في حاجة إلى رجل يدغدغها. تقول عنها إنها تجعلها تروي ظمأها

وتعوِّض حرقة حرمانها من الرجل، وتداويها من ثقل نفسها عليها. تشكرها وتؤكد أنّ الأنثى لا تقدِّرها إلّا الأنثى.

لم تزُرْني بعد عروس المطر لكنني كنت متيقنة من أنها ستقبلني صديقة لأنه لا زوجَ لي وأبي غائب.

تمادت أيام الخريف، وحلّت بيننا وهي تزيح بما تحمله، من ضبابٍ ورياح وكآبة النهارات، الأوراق الملوّنة للأشجار والليالي الصافية لفصل الصيف. عادت إشاعة سماع صدى مواويل والدي وعشيقته تنتشر بين صبايا القرية. ادَّعين أنهن يسمعن ذلك في الليل وعند اشتداد الريح وهي تنثر أصواتها القوية.

فتيات كنّ يسامرن صديقة مريضة سمعن أصوات ريح يتخلّلها في غير وضوح صوت العاشقين. الفتاة المريضة أكّدت كذلك أنها سمعت، بعد مغادرة صديقاتها، الصوتين وهما يردّدان أغنية «زْمَمْ وأنا نْوْدي، هذا مْكْتُوبْ رَبي»... وأن الكلمات كانت ممزوجة بعويل الريح التي كانت تصفر وترقص على إيقاع الأغنية وعلى عزفٍ مبحوحٍ للمزمار.

ليلة كانت الريح تهرهر بقوة نهضت أمي وشققت دفّة النافذة الخشبية، أطلّت على سواد الليل وأصاخت السمع. التصقت بالنافذة حتى اجتاح البرد والريح غرفتنا. نادتها عمتي تدعوها للَعْنِ الشيطان وملء قلبها بذكر الله والابتعاد عمّا تسمعه من خرافات صبايا القرية.

من يومها تغيَّر حال أمي. في الغد كانت مسترخية على الحصير

يعلوها الذبول حين شرعَت تتحدث عن والدي. قالت إنه كان يحبّها وإنه لا يمكن أن يَخونها. مَدْحُها له في النهار تحوّل في الليل إلى سبّه ووصفه بالخائن الغبي. قالت لنا إنها في الليل لم تعُد تجد النوم الذي كان لها ملاذاً ممّا يفترسها من حيرة.

هجرت الكلام. تدخُلُ في صمتٍ لا تودّ الخروج منه. يخيفني صمتها فأناديها وأحياناً أمدّ يدي لأحرِّكها. حين تستفيق من توحّدها مع حزنها تدعو الله لنا نحن الوحيدات أن يعيننا على طرش الجبال وأفاعي البركة وأفاعي البشر.

يُجافيها النوم فتفتح النافذة الصغيرة لبيتنا وتظلّ وقتاً غير قصير من الليل تتطلّع إلى لونه وريحه. حين يشتدّ علينا البرد تعاتبها عمّتي. حالتها صارت تُقلقني لدرجة أنّ نومي أصبح متقطعاً.

على إثر سطوع ضوء خفيف لطلوع النهار، وأنا لستُ راغبة في الاستيقاظ، أيقظتني أمي بعد أن مرَّرَت يدها مبلَّلة بالماء على وجهي. قالت لي وأنا لم أستوعب بعد يقظتي إنّ والدي نادى عليها من بين الآبار الصخرية في الجبل، وإنه كان وحيداً من دون تلك العاهرة شامة. ثم أضافت من بين اضطرابها:

رائحة جثّته خنقتني هذه الليلة وعلينا إخراجها من قلب البئر الصخرية. إنه زوجي ووالدكِ ومن العار أن نترك جثمانه يتعفّن. لنُقِم له جنازة تليق برجل مثله... لو وجدنا الجثمان سنبكي ونرتاح، أمّا أن نظل معلَّقَتَين لا ندري أين هو فهذا عذاب.

اِنقباض قبَض على أمعائي حين أصرَّت أمي غير مكترثة بنصائح عمتي أن أتهيأ للصعود معها إلى الجبل. زاد انقباضي حين

بدَت عمّتي قلقة على حالة أمي وهي تحدِّثني بأنها تخاف على عقلها وحالتها تُنذِر بالسوء، قبل أن تزيد وهي تستنشق من عطر ماء الزهر: الله يحفظ.

كنت مرهَقَة ومتوترة وأنا أشارك أمي البحث عن جثة والدي في الجبل. نقترب من الآبار الصخرية ونعبّ بأنوفنا ما يحيط بها وبفوّهاتها من هواء. لم أشمّ رائحة لجثة ما.

حول بئرٍ علت ريحة ممزوجة بعفونة التراب. انبطحتُ خلف أمي على الأرض بين الصخور، وزحفنا حتى اقتربنا من فوهة البئر الحجرية لنطلّ حيث مصدر الرائحة وعلى قاع البئر، لم يظهر من عمقها إلّا حيث يتوقف ضوء الشمس من الانعكاس ليبقى ما بعده سديماً أسود.

صارت أمي توقد النار في أغصان وعساليج يابسة وبعدما يشتد لهيبها ترمي بها إلى قلب البئر، ننبطح بعدها بسرعة على الأرض لنطلّ. تنزل الأغصان المشتعلة تضيء الجوانب الحجرية للبئر وأمي تدعو الله أن تظلّ مشتعلة حتى تصل إلى القعر لتمكّننا من أن نرى إن كانت هناك جثة متفسخة. العساليج والأغصان المشتعلة كانت تنطفئ بعد رميها بقليل.

عادت أمي يومها معكّرة المزاج، على قسمات وجهها ارتسمت ظلال الخيبة. منهَكَة صارت تشتكي من ألمٍ برأسها. قبل أن تبدأ تشتكي في الأيام الموالية من ألمٍ ينخر كلّ جسدها وتيار من الوجع يصعقها كسفود ينغرس تحت جلد الرأس ويصل إلى أصابع القدمين. مراراً تتجشأ بصوتٍ عالٍ يفزعني، قبل أن تتقيّأ كلّ ما يصل معدتها.

لازَمَت الفراش ولم تعُد ترغب في مغادرته.

وَهَنَت كعود قصب أصفر. كلّ لمسة منا ولو خفيفة كانت تؤلمها. ذبحنا الدجاجات القليلة التي كنّا نملكها، كنت أطبخها بتوجيه من عمتي قبل أن نرغم أمي على شرب مرقها. حين طال أمدُ مرضها صرنا نُطعمها خبزاً مغموساً في الشاي وبعض المرق ممّا نطبخه. شاعَ بين أهل القرية أنها لن تخرج من مرضها.

عمّتي أمام هذا الابتلاء صارت تحاول أن تعتمد على نفسها. وأنا أساعدها في الطهي والتصبين قبل أن أقود الماعز إلى الغابة للرعي.

استدعَت عمّتي فقيهاً في الدين ليَرقي الأم وأصرَّت أن أراقب عمله. قالت لي:

أنا عمياء، وأنتِ عليك أن تظلّي قربها وأن تنظري إلى ما يفعله الرجل. لا يمكن أن تبقى أمك لوحدها مع رجل.

تابعت:

- الرجل من قرية بعيدة ونحن لا نعرفه.

كنت ملهوفة لمعرفة كيف تُدَاوِي كتابة الحروف. أمي كانت ممدَّدة تئنّ وتُخرج زفيراً قوياً، تصمت ثم تستسلم لصمتها قبل أن تئنّ من جديد.

افترشتُ الأرض وظللتُ أتطلّع نحو الرجل. فتح الفقيه جرابه. أخرجَ كتاباً وقرطاساً وقلماً من القصب وقارورة صمغ. بدأ يتمتم ويكتب. كان يخطّ في صمتٍ أحرفاً فوق الورقة الحائل لونها، يتطلّع في كتابٍ أصفر تلاشت أوراقه، يغمس قلم القصب في الصمغ، يتمتم ويكتب.

كنت أنظر كيف يربط الفقيه الحروف مع بعضها فتتماسك. تساءلتُ كيف تتحرّر الحروف من ورقها وتخرج وتصبح قادرة على

مداواة وشفاء المرضى.

قال الرجل لعمّتي إنّ علّة أمي كبيرة، وإنه علينا أن نعلّق التميمة على غصن شجرة ونتركها للرياح تتلاعب بها، وهكذا ستذرّ الرياح المرض وستتيهه بعيداً عن المريضة وعن بيتنا.

حلمتُ بأن أصبح قارئة لألغاز الحروف. فكَّرت أنني يوم أتعلّم خطّ الحروف وقراءتها سأصير مداوية مثل الفقيه وسأخطّ علاجاً لأمي وعمَّتي إنْ مرِضَتا.

سَلَّمْنا الفقيه ديكين. اعترضَ معلناً أنّ هذا الأجر لا يُعادل مجهوده وحضوره من بعيد، ومناداته بواسطة سرّ الحرف على الجنّ لتمنع عنّا شرور صمم الجبال، وطالب بمعزة ثمناً له. رفضت عمتي وأخبرته أنها ستسلّمها له إذا تمّ الشفاء.

لم تتعافَ أمي. استدعينا الغالية. امرأة تحضُر كلّ صباح من قرية مجاورة، تحملُ معها زيتاً كترياق. شخَّصت المرض بانتفاخ الْوَمْ من كثرة الهم، قبل أن تضيف أنّ الوْمْ هي أم الأمراض والشرور تتكون في بطون النساء المقهورات.

كانت المرأة تقوم بتدليكٍ متواصل لبطن أمي من أسفل إلى فوق بعد تسخين كفيها على مجمر فحم مشتعل، ودهنهما بزيت الترياق. تدلِّك وهي تمرِّر يديها باللين، ثم بالضغط على ما حدَّدته كرة غير ظاهرة في البطن، وهي تؤكد أنّ التدليك بالحرارة وحده يفتت الوَمْ ويذيبها. بعدها تغلي أوراق ريحان في الماء وترغم أمي على شرب السائل رغم امتعاضها من طعمه المرّ. تزعم أن التدليك يُذيب الوَمْ أما ماء الريحان فيغسل ما تفتَّت منها ويلفظه مع البول خارج الجسم

وهكذا تنتفي كلّ الأمراض والشرور.

حين لاحظَت أنني أتطلّع بارتباك إلى ما تقوم به خاطبتني:

أمك مريضة بمرض الغبن والحنين، إنها تحنّ لمن غبنها وساعتها يكون الألم أشدّ.

كلّ مساء نحرق أوراق شجر الدفلى ونبخِّر بها البيت لإبعاد ما أصاب بيتنا من شرور واتقاء لشرور قادمة.

طالَ مرض أمي، تزورها نعيمة وبعض الجارات لمواساتها والتخفيف عنها. وبعدما توحي لنفسها أنها قد تعافت، وتحاول مغادرة الفراش تعود إليه منهوكة لا تقوى على الوقوف.

ليلة لاحظَت أنني مكدرة، رسَمَت بسمة على ملامح وجهها المنهكة وقالت لي:

- أخاف أن أموت ولم أفِ بوعد ترحيلك إلى المدينة وإلحاقك بالمدرسة.

استأنفَت في غمّ وبصوتٍ يرتجّ:

مراراً طلبتُ من والدك أن نعجِّل بالرحيل. لو كنا رحلنا لما كان قد تمّ تغييبه بهذه الطريقة.

أشجار الغابة مشتاقة للمطر. فصل خريف تلك السنة حمل معه الرياح والبرد الشديد دون مطر. تأخّر هطول الأمطار التي ترطّب أوراق أشجار الغابة، إنها لم ترتوِ بعد، وما زالت صعبة للمضغ على الماعز. مع مرض أمي وفي انتظار الغيث علينا أن نوفر الكلأ والمرعى للمعز أنا وعمتي.

ضمرت الماعز وأصابها الإسهال حين أطعمناها أغصان أشجار الغابة والعشب الذي أجتثّه من بين أحراشها. كان علينا الالتجاء من جديد إلى الشجرة الأفعى لحطب أغصان الزيتون التي تستطيبها الماعز وأمي طريحة مرقدها.

نصحتني عمتي:

عليكِ أن تتحملي قدرك، إنك ابنة أبيك الذي عاش ليواجه عمى الحجر وقسوة البشر. وأنتِ عليك أن تكوني فتاة جديرة بأب مثله.

عوَّلت على نفسي آملة أن لا تعاندني وأنا أرتقي صخور الجبال على منوال خطوات والدتي. عمّتي تكابد خلفي وتستعين بيديها وبالحبل الذي يربطني بها للّحاق بي، وحتى لا تحسِّسني

بأنها تعوق صعودي.

كانت الشجرة الأفعى تنتظرنا، تتطلع نحونا، وتدعونا لتقرِّبنا من السماء بأغصانها الممتدة في الفضاء والرياح. يُقال عنها الشجرة الشيطان لأنه لا ظلّ لها، وأنه لشيطان يسكنها حرَمَها الله من ظلّها.

أجلستُ عمّتي وانطلقتُ إلى تسلق الشجرة بحماسَة. أعبُر جذعها الكبير الممتدّ أفقياً من صخرة عملاقة زاحفة والعشّابة في يدي. أتشبَّث بفروعها الكبيرة، قبل أن أتسلّقها للوصول إلى الأغصان اليانعة. لا وقت للنظر إلى أسفل، الحبل الذي ربطتُ طرفه إلى جذع الشجرة وتشبثت بالطرف الآخر منه كفيل بمنعي من السقوط ممّا أضفى عليّ إحساساً بأنه بإمكاني التحطيب والعودة بأمان. هكذا خمّنت.

أحطِّب، ثم أرمي ما حطّبته من أغصان جهة عمتي، وأنا أرمي بكلّ جهدي زلَّت قدمي من على فرع الشجرة، انفلتت من يدي القاطعة الحديدية لتسقط في المهاوي السحيقة. كدتُ أن أنجرف معها للقاع السحيق لوادي الجبال حين حاولت القبض عليها.

الخوف القاتل دفعني إلى أن أرتمي على الأغصان متشبِّثة بما يمنعني من أن أهوي. لن ينفع الحبل. تشبثت بالأغصان والأوراق بكل قوتي وثبَّت رجلي على الجذع الواقفة عليه. نجوت من السقوط، لكنني لم أنجُ من الخوف الذي ربطني بمكاني حتى أنني لم أعُد أستطيع الحركة. عيناي تعانداني وتجعلاني أسرق النظر إلى ما تحتي من مهاوي. رأيتُ مماتي كما يُقال في قريتنا. رفعتُ عيني. السماء التي أنا قريبة منها أحسستُها بعيدة عني. ساعتها عرفت ما

كنت أغامر به، وعرفت أنني متسلِّقة أفعى شيطانية تقودني التواءات جذوعها نحو السماء.

هلعة كنت أرتعش، أفتِّش عن أنفاسي وهدوئي وأنا لا أرغب في أن تحسّ عمتي علامات خوفي. طال السكون الذي خلَّفه ارتعابي فنادت عليَّ عمتي. بصوتٍ مسربل بالخوف أخبرتُها بأنني كدتُ أنزلق، وأنني خائفة من السقوط وفقدتُ شجاعة الهبوط.

علا صوتها زاعقة:

ألن تستطيعي النزول؟

قلت لها بصوت مرتجف:

لا. إنني أكادُ أهوي.

ندمتُ على ما صرَّحت به حين رأيتُ عمّتي مرعوبة لا تعرف أين تتجه تتحرك يميناً ويساراً، وتبحث كيف تخلِّصني من ورطتي.

تمكَّن الخوف من شجاعتي، جسمي مبلل بالعرق، عرق التعب وعرق عرفت ساعتها أنه عرق الخوف. نفدَ صبري. أرغمت حنجرتي على الصراخ:

أغيثوني.

وحده صوت استغاثات أقوى من استغاثتي ردّ عليّ. عمتي تستغيث وتنادي علَّ أحداً يسمعنا. لم يعُد صوتها ذلك الصوت الذي تتعمّده ليخرج لطيفاً حين تغني، كان صوتاً جافاً تخرج حروفه مشتَّتة مدوية في مواجهة جبروت ما يحيط بنا من صَمَم الصخور. صراخنا يشقّ عنان السماء والشجرة الشيطان تُبحر بي في الفراغ الهائل الممتدّ تحتي وتحت عيني في امتداد رهيب.

أبكاني إحساسي بالعجز. قرَّرتُ أن أعود زاحفة لكنني لم أستطِع مواصلة زحفي. تبدَّت لي العودة إلى بيوت القرية البعيدة التي تبدو نقطاً بيضاء كبيرة بين تلال الغابات أعزّ ما يمكن أن أتمنّاه.

صرخت عليّ عمتي بين استغاثاتها:

إياكِ أن تنظري إلى الأسفل.

حاولتُ أن أهرب من مَجمع خوفي بأن أظلّ هادئة محدقة فيما أنا فيه بروِيّة. عمّتي تستغيث وتنادي على مَن ينقذنا دون صدى. استغاثات بكلمات تشقّ قلبي.

- أنقذوا ابنة أخي زَهْرَة هي مَن بقيت لي في هذه الدنيا.

عيناي دمعتا، لم يعُد لي ما أحتمي به من رعبي سوى دموعي. حاولتُ أن أهدأ وفكَّرت في أن صراخي قد يصل إلى الحطابين البعيدين عنّا ويأتون لنجدتي.

جفَّ فمي، لم أعُد أستطيع الكلام. لكنني أطلقت العنان لجوفي فخرجَت الكلمات صراخاً جرحَ حَلقي حين شاهدتُ عمّتي تقترب من الهاوية وهي تحاول أن تبحث بيديها عن جذع الزيتونة الملعونة. صحتُ عليها بأن لا تتقدم وأن تعود إلى الخلف قبل أن أختم في شجاعة تسلَّلَت إلي من بين رعبي:

- لا تخافي. كفّي عن الصراخ. إنني نازلة.

طائر عقابٍ كان يتمختر ويتهادى في طيرانه غير بعيدٍ عني في السماء. كم يملك الطير من سلطة وحرية. حسدته على طيرانه وهروبه من تعب الأرض نحو السماء، تمنيتُ لو كنت طائراً، ووجدت أنه يستحق التقدير الذي يتحدّث عنه أهل قريتنا. اكتسحتني لحظتها

الرغبة في اختراق العلا والسماء، وفي الطيران. ترسَّخ في ذهني حلم بأن ينبت لي جناحان، فأرفرف وأحلق عالياً في السماء الرائعة، وأهرب من مطبات الأرض كلّما لطمتني قسوتها.

رأيتني أفتح يدي وأشرع رجلي وأرتمي في الهواء محلِّقة أتهادى مع الريح، أكلِّم الطيور وتكلِّمني، أراقصها وتراقصني.

ما ملأني من فكرة الطيران سرعان ما شغَلني عمّا يفترسني، شُلّ الخوف داخلي وتوقفت ارتجافات اضطرابي، نزعت يدي من الأغصان التي كنت أحتمي بها من سقوطي، وزحفت بتؤدة على جذع الشجرة الكبيرة وفروعها، ثم وجدتني أقفز إلى الأرض-وأعانق عمّتي.

وجدتُ وجه عمتي طيناً أسمر مجففاً تشقِّقه غضون ينحدر دمع من بينها. تضمّني وتبكي وتطلق صرخات عتاب. تعاتبني، تعاتب الشجرة الأفعى، تعاتب الدنيا، وتلعن وتسبّ الأرض والشجر والجبل والحجر.

سالت دموعي مرة أخرى من تلقاء نفسها. وصل بعض القرويين ممّن سمعوا استغاثاتنا. خجلتُ من وضعي وأحسستُ بالإهانة.

أثناء عودتي من دون حطب علَّقت نظري بالشجرة مشمئزة، وجدتها جذع حرذون ضخم هرم يحاول أن يلاحق السماء في علاها، وينفث من أوراقه التي يزحزحها الريح وعيداً نحو المجهول.

عانقتني أمي وقبّلتني وهي تغالب شحوب وجهها بابتسامة ترشق عينيها الذابلتين بوميض باهت. عناقها مسحَ ما حلّ بي من تذمّر.

كنت أغالب غضبي وعمّتي تحكي لأمي بتفاصيل نمنمتها بتغيير صوتها من حنون باكٍ إلى مستغيث صاعق. كنت غير راضية عن نفسي وأحسّ بذنب ثقيل لأنني لم أستطع أن أساعدَ عائلتي.

ضمَّتني أمي مرة أخرى إلى صدرها وهي تخاطبني بصوت خفيض غائص في الحزن:

إنك حقاً امرأة مثل أمك. هنيئاً لنا بك. سأتعافى وسنهجر هذا الهم ونرتاح من بحر الغم المحيط بنا.

منذ تلك الظهيرة ورحمة بطفلة وسيدة عمياء صارَ بعض أهل القرية يسمحون لنا بأن نحطب من أشجار الزيتون البري التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم. أرتقي الشجرة التي سمح لنا بأن نحطِّب منها، أخاف لكن حين أرفع عيني إلى الشجرة الأفعى تتبدى لي الشجرة التي أعتليها بساطاً. نكوِّم ما حطّبناه رزماً، نلفه بحبال، تصرّ عمتي على أن تكون حزمتها كبيرة تحملها على ظهرها، وتستعين بعصا تساعدها على تثبيت خطوها.

يشتعل قلقي على عمّتي أكثر ممّا كنت بصحبة أمي. إن كنا قد صعدنا الجبل بتعبٍ فكيف سننزل منحدراته. لا أعرف إن كنت سأتقدّم أمامها وأقودها أم أظلّ خلفها. مرة أشدّ الحبل الملتف على حزمتها من الخلف وأنا أنبِّهها وأوجِّهها إلى ما بين المنعرجات الضيقة قلب المنحدرات الشديدة، ومرّة أتقدمها وأطلب منها أن تضع يدها على كتفي. كنا نصل إلى البيت وأيدينا وأرجلنا مجروحة ومدماة من محاولات التشبّث بالحصى والعشب والأرض.

أدخل فناء البيت وقلبي يخفق ممّا عشته من تعبٍ وممّا يربكني

من خوف على حالة أمي. أسرعُ وأرتمي قربها وأنا أدقِّق النظر في وجهها، وأراقب تنفّسها لأتأكد إن كانت ما زالت تتنفس. يهمد جزعي حين أجد صدرها يعلو ويهبط، ويتملّكني ارتياح حذِرٌ إذا ما لاحظتُ أنها تتنفس ببطء وهدوء. يعود لي الاطمئنان حين تكلّمني. لستُ أدري متى قد كنت تعلمت أن الموت يعني انقطاع الكلام والتنفس. كنت أخاف أن تموت وأفقدها.

اَيْمَا عْلَا مْنُو ظَرِيفْ

خَوْفي تْمُوتْ أَسْيَادي. وِيَبْقَى مُوطْعَا خَاوي

أغنية بشجى أليمٍ كانت تُحزنني حين تردِّدها عمتي ونساء القرية في وصلة من الحزن البليغ اللذيذ، النساء يغالبن دموعهن عند سماعها. أنا عيناي تتأهّب لدفق الدموع كلّما سمعتُ الأغنية.

نعم كم أخاف أن يموت كلّ مَن كان معي لطيفاً وظريفاً ويبقى مكانه فارغاً. لا أخاف أن أفقد بالموت من أعزّه فقط، بل أخاف أكثر أن أفقد مَن يسندنا في الحياة بعدما فقدنا أبي. كانت الأغنية تحضرني حين أفكِّر في مرض أمي مقرونةً بخوفٍ كبيرٍ من فقدانها. مَن سيكون لي بعدها؟

داخل وخارج البيت أصبحتُ نهباً لأفكار سوداء. أطوح بعيني بين أسوار البيت والتلال والجبال والغابات التي سأظلّ بينها وحيدة لا سنَدَ لي سوى عمّة عمياء وذكرى أمّ وأغنيات أب.

يتمادى الارتياع داخلي أكثر حين أكون في الغابة، وتشرَع السماء في نشر لون غطائها الذي تشتدّ رماديّته شيئاً فشيئاً، وتبدأ الطيور في الرحيل أسراباً مغرّدة فوق رأسي، متوجِّهة إلى حيث

ستنام. ساعتها أهشّ على معزي في غضبٍ لأعود بها مسرعة من الغابة. اقتراب المساء ظلَّ دائماً يُثير فزعاً غريباً في دواخلي.

عشية باردة عُدتُ بمعزي جَزِعَة وجائعة. رائحة لذيذة لطهي الخبز في الكانون استقبلتني. اندهشتُ حين وجدتُ أمي تقوم بطهي الخبز وتهيّئ لنا وجبة العشاء في نشاط. عانقتُها فقالت لي باسمة بين الدموع:

إن شاء الله. قريباً سأطبخ الخبز الذي سنرحل به إلى المدينة.

كان صباح اليوم التالي مشرقاً على روحي. استيقظتُ على صوت والدتي الذي بدا لي قريباً قبل أن أفتح عيني لأهرب ممّا كنت أحلم به، وأتأكد من أنها واقفة على رأسي توقظني وهي تبتسم وتقول لي:

الحمد لله أحسّ هذا الصباح بعافية جديدة، وبأنّ جميع الشرور رحلت عني. إنها رسالة من الله... انهضي لتناول فطورك.

ظلت أمي عشية كلّ يوم تغتسل وتتوضأ، ترتدي ثياباً نقية وتصلّي قبل أن تفتح الصندوق الخشبي الأحمر، المزركش بخطوط وورود باهتة مختلفة الألوان، حيث نحتفظ بحوائجنا الثمينة، نايات والدي، قفطان زفافها ودملج من النقرة وَرِثَتْه عن جدّتها وشرشف قديم مطرّز باليد وَرِثَتْه عن أمها، وقطعة ثوب بيضاء نقية تحملها بعناية كبيرة، ثم تخرج من بين طياتها كتاباً قديماً مغلّفاً بجلد من لون حائل، تفوح منه رائحة خشب الصندوق ورائحة الجلد.

تفتح الكتاب، قرآن مخطوطٌ وحواشي أوراقه منمنمة. تتطلع إلى صفحاته بحنان، تعلو وجهها صرامة وطمأنينة، تحدِّق في أوراقه الصفراء، أشاركُها التطلّع إلى تلك المنمنمات، نقوش سوداء على الورق الحائل الأصفر تُماثِل تلك التي كانت مخطوطة في كتاب الرجل الذي حضر إلى بيتنا ليرقي أمي.

تقرِّبُ الكتاب من شفتيها تقبِّله وتقول لي هذا هو المصحف المقدّس كتاب الله. أحملقُ فيه باحثة عن قدسيَّته، وقوَّته. أحلم بأن أعرفَ السرّ الذي يحتويه وأسمعُ عبر قراءتي له كلام الله. تقدِّمه لي أقبِّله كما فعلَت هي وأنا واثقة في كلام أمي من أنّ هذا الكتاب هو

حامينا الأكبر، وأنّ حمايته لنا لا تنقطع ولو بعد غياب والدي.

كانت أمي تحمل القرآن بين يديها، وتقول لي لا قيمة للحرف دون قراءته. تُدمدِم شفتاها كلمات احترام وإجلال، تشرَع في القراءة. لم تكن تقرأ لكنها كانت تردِّد ما لقَّنَه لها والدها عن طريق السماع. بعض السور، أدعية وذكر. يعلو وجهها انشراح. أسعَدُ بانشراحها. تلقِّنني الآيات القصيرة التي تحفظها. نختم قراءتنا بأدعية. تعبِّر عن سعادتها: الحمد لله على هذه الراحة.

أسعدُ عندما تقرأ على طريقتها، وتصبح هادئة وقد انمحَت عن وجهها أمارات التعب وحلّ إشراق، ارتياح وَدَعَة. أرتاح أنا كذلك وأفكِّر ما معنى أن نرتاح عندما نقرأ؟ وأيّ سلطة للقراءة ولهذه الحروف حتى تغيرنا؟

ليلة بعد ما انتهت من قراءتها للقرآن سلَّمتني دفتراً بعناية، قالت لي لقد اشتريتُ لك هذا الكراس من المدينة، تيمّناً بدخولك يوماً إلى المدرسة، أبناء المدينة يملكون مثله في المدارس.

حملقتُ في الصورة التي تعلو الغلاف، صورةُ وجه شيخٍ وقور بلحية طويلة وعمامة على رأسه. قالت لي إنه يشبه جدّك الذي كان يقرأ ويكتب، ويقول لي إنّ أول ما أمرنا الله به هو القراءة. لكنني لستُ أدري لِمَ لَم يعلِّمني الكتابة والقراءة. كانت تذكر أباها مرّة شاكرة وأخرى معاتبة:

أبي علَّمني المعرفة مبتورة، حفَّظني القرآن وبعض الأذكار دون أن يمكِّنَني من القدرة على القراءة والكتابة. إنني أترحَّم عليه ولو أنني لن أسامحه.

تُواصل وومضة بسمةٍ على محياها:

أنتِ حفيدةُ رجلٍ قارئ. فكيف لا تكونين قارئة!

تلاحظ اندهاشي وكأنها تأكَّدت أنّ طريقتها في إغوائي بمحبّة الحرف نجحَت فتستأنف كلامها في توكيد:

جدّك كان يقول إنّ للحرف سطوة كسطوة الجنّ الذين نؤمن بهم ونحن لا نراهم، فكيف لا نؤمن بقوة الحرف ونحن نراه ونلمس الأوراق التي خُطَّ عليها؟

مدَّت يدها إلى رأسي وتطلَّعت نحو وجهي قائلة:

- سأجعل ابنتي تقرأ وتكتب وتفكّ أسرار الحروف. ستترحَّم عليّ بقلبٍ راضٍ شكور. اللهم يا ربي لا تفكّ عني روحي حتى تكون ابنتي قد تعلَّمت فكّ أسرار الحروف. لفكِّ الحروف عظمة وقوَّة وسرّ. والدكِ ما روَّض الحروف وصار ينظم كلاماً موزوناً إلّا لأنه قرأ وتعلّم الحرف، بواسطته خفَّف عن أرواح الناس المُتعَبَة وصدَحَ في وجه الجبال علَّها تسمعه وتسمع نداءاتنا.

الكلام الموزون، والكلام أصله الحرف، أعطى قيمة لوالدك بين الناس ولو أنه غَيَّبه فلقد أحيا ذكراه حين ظلَّ الناس يردِّدون أغانيه. يا لقوّة الحرف وقيمته وخطورته.

تتابع:

في المدينة ستتمكّنين من ولوج المدرسة وستفكّين الحروف. ستبدئين بفكّ ظاهر الحرف ثم بعدها تتعلمين فكّ بواطنه. للحروف بَواطن نستطيع فكّها ومن ثم تطويعها والتمكُّن من قوة أسرارها. لا معرفة دون فكّ الحروف وبواطنها. أنا لا أعرف كيف، لكن جدّك كان

يقول إنه بهذا نتمكّن من فَهم الدنيا والآخرة.

وأمي تتعافى صارت تهدهدني بحكاياتها في الليل عن الأمير الجميل الحكيم الذي فكَّر في الزواج، وخرج يبحث عن فتاة ما تسلب قلبه. تاَه في المدن والقرى متخفّياً في هيأة عطار إلى أن التقى بفتاة قروية ترعى الماعز في الغابة وهي تقرأ كتاباً فهامَ بها وتزوّجها.

ينشيني الحكي عن الأمير الباهر جماله وحصانه الأبيض اللطيف المزين سِرجُه باللآلىء والمرجان، ويغلبني سحر النوم مدثراً بسحر حكاية الأمير، وأحلم بأنّ الأمير الجميل سيلتقي بي خلال بحثه وأنا أرعى المعز بين أدغال الغابة، إلّا أنني أتألم لأنه لن يجدني أقرأ.

بدأتُ أهتمّ بكلّ ما له صلة بالحرف، صرت أنظر بإجلال إلى طلبة القرآن بمسجد القرية. إنهم يعرفون الحرف وبواطنه. احتراماً لهم أختار وقت توجّهي لملء الجرات بالماء أو لتصبين الملابس في الصباح ساعة وجودهم بعين الماء لغسل ألواحهم. أسارعُ إلى أخذ الألواح منهم، أمحو بالماء ما كتب عليها بالصمغ، أمرِّر عليها يدي بلطف حتى تصير ملساء وأضعها تحت الشمس. هكذا أعدّها لاستقبال كتابات أخرى.

انبهرتُ يوم رأيتُ كتاباً بصورٍ ملوّنة عند بقّال القرية. اندهشتُ من جمال صوره ومن تصفيف الحروف ومن ليونة أوراقه. تمنيت لو يعطيني الكتاب، اشترطَ عشر بيضات وهو يتباهى بأنّ الكتاب مجلّة مكتوبة بلغة الإسبان.

كان عليّ أن أهيم في البساتين وبجانب أسمطة الحطب بحثاً عن عش دجاجة يحتوي بيضاً. سرقتُ بعض البيض من أعشاش دجاجاتنا، وأكمَلتُ الباقي من أعشاش دجاجات الجيران التي تضع بيضها خارج خمم وأحواش البيوت.

لم يعُد الكتاب يفارقني. صور جميلة بالألوان لرجال ونساء

بلباس رومي، يبتسمون وكأنهم يبتسمون معي. أحملقُ في لباسهم الجميل الغريب. صورٌ لسيارات وأشياء لم أرَها من قبل ولا أعرفها. الأوراق الليّنة للمجلة أمرِّرها على وجهي وأمسِّده بها، كانت باردة ناعمة ينتعش من ملمسها خدّي.

صور المجلة زوّدت حلمي بالمدرسة وأذكَت نار رغبتي في المدينة وتولَّد لديّ عالم من السحر والأحلام والفضول. في الليل وأنا أقترب من ضوء الكانون الخافت لأحدِّق من جديد في صور المجلة سألتُ أمي إنْ كان سكان المدينة كلهم يتمتّعون بالجمال ويتأنقون مثل صور المجلة. أجابتني بما يوقظ حلمي بالرحيل:

- سترين أولئك الناس عن قرب إن شاء الله وستكونين يوماً مثلهم. قراءة الحرف في المدينة تتمّ في مثل هذه الكتب.

صرتُ أحمل معي المجلة حين أقود الماعز إلى الرعي في الغابة. عَلِقَ جَدْي داخل خندق تحفّه أشجار العليق، توجّهت لأخرجَه وحين عدتُ وجدت المعزة حمورة قد التهمت بعض الصفحات من المجلة. ضربتها يومها. أصبحَت معظم الصور ممزّقة ومبتورة. لم أعُد أخرِجُ المجلة من البيت.

***

منعتني أمي في صباح نديّ من الخروج للرعي، ألبَسَتني ملابس نقيّة وتوجّهت بي إلى مسجد القرية. صارَت تستجدي الفقيه:

ساعدني حتى تتعلم ابنتي فكّ الحروف كالصبيان.

وقف فقيه المسجد في بابه وهو يقول لنا:

- أهل القرية يرفضون ولوج الفتيات إلى الكتّاب.

تتدخّل أمي:

أنا لن أتركها طويلاً، أنا لا أرغب إلّا في أن تتعلم قراءة الحروف.

غضبَت عمتي حين عدنا مكسورَتَي الخاطر إلى البيت وخاطبتنا:

قريتنا حجبَت عنها الجبال العالية وسحبها الكثيفة والأشجار السامقة الرياح التي تحمل معها حبّ المعرفة. رياحنا لا تحمل إلى قريتنا سوى ما تشغل به بال أهلها من صراع، ونزاعات حول حطب جاف أو تراب لا يصلح حتى لتغطية البراز.

صباح الغد أمرتني عمتي بأن ألبس الثوب النقي وأقودها إلى المسجد. بباب الجامع نادت الإمام. أمام سلاطة لسانها وتشبّثها وقسمها بأن تُدخِلَني الكتاب وإلّا ستتعرى رضخ الرجل، وأرغم على قبولي تلميذة بالكتاب وهو يستعيذ بالله.

داخل الكتاب اشتعَلَ غضب الإمام الفقيه وصار ينزل بعصاه ضربات مؤلمة يميناً وشمالاً على الأطفال وهم يواصلون قراءة ألواحهم بعيون دامعة.

لم يضربني أنا يومها، ورغم خوفي وقرفي كنت مصمِّمة على أن أرضي أمي وعمتي وأتعلم. رحتُ أمتصّ حروف كلمات القرآن التي يردِّدها الأطفال بين شفتي وأنطق الحرف الأخير لأبيِّن للفقيه

اهتمامي ورغبتي في حفظ الآيات. لحظة الكتابة على الألواح ظللتُ أحاول التطلع كيف يرسمها الصبيان على ألواحهم غير آبهة بنظراتهم التي تتطلع نحوي بشزرٍ.

في الليل حَضَر مقدم القرية إلى بيتنا وأمرني بأن لا أتوجه غداً إلى المسجد لأنّ أهل القرية رفضوا أن تلجَ بنتٌ كُتاب المسجد.

في تلك الليلة ونحن نتناول العشاء خاطَبَت عمّتي أمي آمرة:
دعي عنك زَهْرَة. طريق تعلّم أسرار الحرف ضربٌ من الهم، يكفي ما نحمله من هموم فكيف سنزيد حمل همّ آخر؟!
مسحَت أمي غضبها من رأي عمّتي وزرعت ابتسامة على محياها الذي انفرجت أساريره وردَّت:
- كان أخوكِ يقول إنّ عقل الإنسان ينمو بفك ألغاز الحرف وبِكثرة الْهَم.
حملقتُ فيها بنظرات توحي بعدم فهمي لما فاهت به. فواصَلَت كلامها بما رأته تفسيراً:
عِشْق الحرف مسؤولية وتضحية.
رسمت على ملامح وجهها وقاراً، رَمَتْني بنظراتها لتحسِّسَني بأنها توجِّه كلامها إليّ واستأنفت:
لقد كنتُ جميلة وكان الكثير من أبناء القرية معجبين بي، يطلبون ودّي ويرغبون في الزواج مني. أنا ما عشقتُ والدك إلّا لأنه كان متمكِّناً من قراءة الحروف، ومنها كان ينظم كلاماً شجياً يخاطب به القلوب الصماء. كان غناؤه كسقوط الندى على أرواحنا المتعَبَة

بين هذه الجبال.

رفعت عمّتي يديها عن سعف النخيل البري الذي كانت تفتله حبالاً، ورفعت رأسها نحو سقف البيت وتوجَّهت جهة أمي وكأنها ستحكي قولاً مهماً:

اعترفي وقولي لابنتك بأنكِ كنت مغرمة بالجمال الأسمر أيتها العفريتة. لِمَ لا تقولي لها إنّ لون أخي الكحلي كان لوناً بجمال فلقة القمر في عزّ نورها!

اتَّجهت عمَّتي نحوي وكلمتني ما بين الهزل والجدّ:

المرأة من طبعها عاشقة، وأمك لم تعشق والدكِ وتفضِّله على العديد من رجال القرية بسبب فكّه للحروف ولبهاء صرخاته وغنائه فحسب، وإنما لأنه كان الزهرة التي نبتت بين الحجارة الصماء، وهي قطَفَتها. والدكِ كان وردة بيضاء موشومة بالقليل من السواد متوَّجة بجمال العينين.

ردَّت أمي في كآبة بصوت خافت:

نعم كان زهرة روحي، لقد عشقته وتزوّجته رغم معارضة أهلي. في الحقيقة أتمنى أن يكون قد خانني وهرب مع شامة، على أن يَصِلَني خبر نعيه.

في ملامح توحي بصرامة نادراً ما شاهدتُها على محياها وجَّهَت كلامها إلى عمّتي:

أنا لم أعشقه لجماله فحسب...

لم تكمل كلامها حين قاطعتها عمّتي في جدّ وتباهٍ:

كلّ بنات القرية كنّ معجبات بالكْحيلَة.

أنا كانوا ينادونني بزهرة بنت الكْحيلَة الزمار. والدي لم يكن ببشرة سوداء كالحة، كان لونه سمرة فاتحة نحو البياض، وكانت عيناه خضراوين عسليتين.

عمتي ترى أن لونها الكحلي الغامق سببٌ في عدم زواجها. كانت تقول لي أنتِ محظوظة لأنّ لون بشرتك أبيض أما أنا فلم يقبل لوني أي رجل وعيناي سليمتان ومكحولتان، فكيف سيقبل امرأة سوداء عمياء!

عادت تتأسّف على سوء حظّها وهي تمدّ رجليها:

لولا لعنة جدنا سِيدِي المَحْجُوبْ سامحه الله لكان لوني أنا كذلك أبيض ناصعاً نَضِراً. لعنته بدأت يوم غضِبَ ودعا على أبنائه.

تمدَّدت عمتي على حصير البردي وتوسَّدت وسادة خلف ظهرها وهيَّأت نفسها لتفريغ ما بصدرها:

كلّ بني آدم كانوا بيض اللون. أجدادنا كانوا بيض البشرة كباقي أهل الدنيا لكن قلة حياء جدنا الذي لقِّب بالكْحيلَة الأول وإخوته تجاه والدهم سِيدِي المَحْجُوبْ أدَّت إلى ما أصبحنا عليه من لون أسود. اللوم على فضوله وعلى الجبال العنيدة.

الفضول البائس قادَ جدنا الكحيلة وإخوته إلى المرور قرب غدير الأفعى حيث كان والدهم يغتسل فيه ويتوضأ. لكن تختلف الأقاويل وتتغير حين نحكي عن زمنٍ موغِلٍ في القدم. ففي حكاية أخرى والتي نتحاشى نحن أحفاده أن نتطرّق إليها، كان جدنا المحجوب معجباً بجماله وكان مغروراً، وأنه لحظة رؤيته من طرف أبنائه لم يكُن يتوضأ، بل كان يحاول أن يغري الأميرة الجنية بعد أن

نَزَعَ عنه كلّ ثيابه لعلّها تُغرم بجماله وتهبه سرّ بركة الأفاعي. مهما كان السبب فوجود الجد المَحْجُوبْ في غدير الأفعى وهو عارٍ لم يجلب له إلّا عيون أولاده. حين رفع عينيه وجد عيون أبنائه تبحلق فيه بفضول.

صدمة الرجل وثورة غضبه من تلصُّص أبنائه عليه، جعلته يدعو عليهم بأن يلوّن الله بشرتهم بالأسود ويكحل أيامهم، كما سوّدوا قلبه بعدما اطّلعوا على عريه، الذي حاول طيلة حياته حَجْبه عن الأعين. لشدّة ورع الرجل وزهده استُجيب لدعائه فاسودّ لون أبنائه في الحال.

المحجوب صاحب الكرامات فوجئ بالاستجابة السريعة لدعائه، وانزعج ممّا آل إليه لون أبنائه. نَدِمَ ورقّ قلبه ودعا الله أن يغفر له زلَّته وتَسَرُّعَهُ، فهداه الله بأن يدلّ أبناءه على العين البيضاء. فصرخ وقلبه غارقٌ في الغضب والحنان عليهم بأن يسرعوا إلى العين قبل أن تجفّ.

العين البيضاء كانت بعيدة خلف الجبال الصمّاء قلب كهفٍ مُحاط بصخور بيضاء بلون الثلج في سفح الجبل الخالي. جرى الأبناء محاولين الوصول قبل جفاف العين. عودة لونهم كان مشروطاً بالجري دون توقّف والاغتسال ممّا لحق بهم من لعنة سوداء.

يرقّ صوت عمتي:

اللهم اجعل تعبهم غفراناً لذنبِ تلصُّصِهم.

هرع الأبناء الثلاثة إلى العين، طالَ جريهم ليلاً ونهاراً حتى صاروا يلهثون ويقتلعون أرجلهم من الأرض بصعوبة. المسالك

والجبال كانت تُخلق من جديد تحت أقدامهم، وأمام أعينهم، والنهارات والليالي تتوالَد من ذاتها. وصل الابن الأول والثاني، رَمَيا بنفسيهما داخل العين فعاد لونهما إلى ما كان عليه من قبل، إلّا أنّ الثالث الذي هو جدّنا الكحيلة تأخَّر لأنّ الجبال كانت تتناسل لتعترض طريقه. وكلّما اقترب من قطعها إلّا وتتولّد عنها جبال أخرى بمثل حجمها. أُدميت قدماه وأُدمِيَ قلبه. توسَّل إليها أن تبتعد عن طريقه وتسمع صوت آلامه وتدعه يعارك ما ابتُلِيَ به. لكنها كانت تواصِل صَمَمها غير عابئةٍ باستعطافه. واصَلَ الركض ووصل لكن متأخراً، فلم يلحَق إلّا قطرات من ماء قارَبَ على الجفاف.

كلّ ما استطاعَ فعله حين وقَفَ قلب عين الماء هو تمرير كفيه في الماء والمضمضة. ابيضت كفَّاه وباطنا قدميه ولمعت أسنانه، وهكذا صار جدّنا الأول أسود اللون وتناسَلنا نحن منه كالحراذين.

ساعتها أقسم أمام الله أنه لن يدع الجبال تنعم بصدِّها لرغبات المخلوقات وتستلذّ بخرسها وبأذى الإنسان. صَنَعَ ناياً من قصب، وصار يجُول بين الجبال والغابات والقرى، وتحت الرياح والمطر والشمس، يعزف وينشد الألم والأمل والفرح ليستفزّ عنادها. أورَثَ أبناءه وأحفاده المهمة قائلاً:

لا تتوقّفوا عن العزف. لا تدعوا الجبال تنعَم في صَمَمِها. اجعلوها تردِّد صَدانا حتى تنبت أزهار البلسم. أحيُوا الأفراح دون شرطٍ ودون أن تطلبوا مقابلاً لذلك.

لهذا عادة ما كان آباؤنا يحيون حفلات أهل القرى دون مقابل اللهم بالقليل ممّا يُتصَدّقُ به عليهم. اختلطَ لون السواد القاتم

وانصهر مع اللون الأبيض بعدما سمح لأبناء جدنا الكحيلة بالزواج بنساءٍ بيض وهكذا وُجِد والدك بلون بشرته الجميل. وهكذا وَرِثَ والدك مهمّة أجداده.

تبتسم وهي تُداري أساها وتوجِّه كلامها نحوي:

- لونه لون نور القمر. أمّا أنا سيئة الحظ فلم أصبغ ولو بلَمسة بيضاء خفيفة. كأنني سواد قمر غاضب. الحمد لله أنكِ بيضاء البشرة مثل أمك ولو أنّ أنفك يشبه أنف والدك.

عادت تتأسَّف على سوء حظها وهي تمدّ رجليها:

لولا لعنة جدنا سيدي المَخْجُوبْ سامحه الله لكان لوني أنا كذلك أبيض ناصعاً نضراً، ولكنتُ قد وجدتُ مَن يتزوّج بي.

تمنّيتُ أن يَرزق الله عمّتي زوجاً صالحاً يحبّها رغم عماها وسلاطة لسانها. استجاب الله لدعائي وحضرَت لبيتنا خاطبة.

حضور فَاطْنَة الخاطبة عندنا غيَّب دفء الحكايات عن ليلنا. عمتي قلقة على غير عاداتها. أمي صارت عصبية لا تحدِّثني إلّا نادراً وباقتضاب. في الليل تهرع باكراً إلى مرقَدِها، تطفئ الشمعة وتتمدَّد. لم تكن تستسلم للنوم بسرعة. سمعتها مرة تبكي وتحاول أن تحبس دموعها.

كنت أستعدّ للذهاب بالماعز إلى الغابة حين أخبرتني عمَّتي بما لم أكُن أعرف سببه:

عليكِ أن تعرفي. فاطنة تحضر عندنا لتخطب لقريب لها.

أرخَتْ على وجهها هالة من الغمّ فتغضَّنَت بشرتها السوداء، وواصَلَت وهي تحرِّك عينيها شبه المغمضتين نحو الأعلى، حركة دأبت عليها كلّما كانت غاضبة:

- أبوكِ لن يعود، مرَّت شهورٌ ولا أثَرَ له ولا لتلك الطائشة شامة. قلبي يحدِّثني بأنه لن يعود ومن المحتمل الأكيد أن العريبي قتلهما.

ثم أضافَت في غمّ تمكّن من ملامحها وهي تستنشق من عطرها:

- المرأة قالت إن الرجل الخاطب كبير في السن، لكننا نحن نساء دون رجال. لقد تعبنا. ومن المفيد أن يكون ببيتنا رجل يساعدنا.

حدستُ أن تكون عمّتي ستتزوج. لكن عمتي قَطَعَت حدسي:

رجوتُ الله أن أرزَق أنا بزوج. لكن أين هو؟ حتى البنات الجميلات لا يجدن زوجاً في منطقتنا، ما بالكِ بسوداء عمياء. أمّك هي التي ستتزوج، إنها ما زالت صغيرة وفي حاجة إلى رجل. يوم تكبرين ستعرفين ذلك.

نساء قريتنا كنّ يصفن أمي بالمرأة الجميلة، صاحبة عينين مكحّلتين من دون كحل وحمرة شفتين طرية على الدوام وشعر أسود طويل وقامة فارعة، التي عشقت زماراً أسود اللون.

أمي صارت تكرَه هذا الإطراء منذ اختفاء والدي، نَهَرَت يوماً جارتنا ميمونة بأسى بادٍ:

- بماذا نفعني جمالي حين غادرني زوجي دون سبب مع بنت عصابة الجبل؟

عمّتي ترى أنّ جمال أمي الذي لم يذبل بذبول روحها ممّا ألَمَّ بنا، هو سبب طلبها للزواج مرة ثانية.

أنا كنت أكره الحديث عن جمالها، تمنيت لو لم تكن جميلة حتى لا تلاحقها عيون الرجال وتتزوج.

قبل أن تهطل دموعٌ من عيني في صمت تُخبر بأنّه انقطع رجائي بأن أرى والدي مرة ثانية، استأنفت عمتي:

لا تحزني لزواج أمك فستكون بخير وسنكون معها نحن كذلك. أبوك لن يَظهَر وشهادة غياب له تمكّن والدتك من الزواج.

يسدل الأسى ستائره على بيتنا وعلى قلبي قبل أن أتوجه للنوم.

في صباح موالٍ أدخَلَتْني أمي إلى الميضاء وغَسَلَت لي كلّ جسدي، سألتُها وأنا متهيِّبة من ردِّها إن كانت ستتزوج. لم تُجِبْني. ألبستني لباساً نظيفاً وأمَرَتني بأن لا أذهب إلى الرعي.

ارتسم حزن على قلبي. ظللتُ الصباح كله شاردة. أمي وعمَّتي صامتتان تهيئان رغيفاً مقلياً في الزيت وتوضبان البيت لاستقبال الضيوف. عمَّتي تحاول أن تكسر بتعليقاتها الصمت الثقيل على القلوب. حضرت الخاطبة مصحوبة بأختِ الرجل الخاطب وبقالبٍ من السكر وعلبة بسكويت وقفطان لأمي.

غيَّرت ملابسي النظيفة وخرجت. كنتُ أرغب في أن أطفئ قلقي بالسَّير قلب الغابة. وأنا عائدة تسمَّرت تحت شجرة فلين عالية الفروع حين رمقت طائراً يلتجئ إلى عشه. تخيَّلته عصفورة تنتظرها صغارها. شيء حارق تسلّط على روحي جعلني أقبع تحت ظلّ الشجرة شاردة، وأنا أحسّ أنني أرغب في شيء ما، أو أنني لا أعرف ما الذي أرغب فيه، أو أنني لا أرغب في أي شيء.

***

أصرَّت عمّتي أن أشاركها الطريق إلى سوق الثلاثاء الأسبوعي. قالت سنذهب لنرى إن كان خاطبُ أمك زوجاً مناسباً لها ولنا، كلام أخته عن كبر سنه أخافني. وجَّهت كلامها بنبرة آمرة لي:

لقد كبرتِ، وعليكِ أن تعرفي مصلحة أمك. علينا أن نحثّها

على قبول الزواج حتى نتحرَّر من قيود الفقر والحياة الصعبة بقريتنا.

شدَّتني من يدي:

التحقّق من رجولة الرجل مسؤولية على عاتقكِ بما أنني عمياء.

كان عليَّ أن أدقِّق في تفاصيل الرجل حتى لا نَهِبَ أمي خادمة إلى شيخ هَرم تخلى أبناؤه عنه.

قدتُ عمَّتي عبر المسالك الطرقية. وصلنا إلى سوق الثلاثاء. طلبَت مني عمَّتي أن أسدل الفوطة على رأسي بإحكامٍ وأتظاهَر بأنني متقدِّمة في السن.

من بعيد دلَّنا قروي على شيخ يبيع قدوراً وأواني من خزفٍ بلديّ أحمر تُستعمل للطهي، وجرَّاتٍ لملء الماء.

لم يكن الرجل يشبه أبي. كان شيخاً كبيراً في السن بعينين صغيرتين وأنف كبير. وجدته متربّعاً بلحيته الشيباء، وبجسده النحيل المختوم في جلبابه الأسود الرثّ بين أواني من الخزف داخل كوخ من الزنك. شعرتُ بنفورٍ غريب من الرجل. تذكَّرت أبي.

نفَّذتُ ما لقَّنتني عمتي. طلبتُ من الرجل أن يسلِّمني جرة من رفّ عالٍ. قدَّم لي أخرى مماثلة لها من أمامه لكنني أصرَرْتُ أن لا أشتري إلّا تلك المعلَّقة بالقرب من السقيفة. كان هدفي أن أعاين قدرة الرجل على الحركة، أي إنْ كانَ محافظاً على بعض قوّته أم أنه عاجز أعياه الزمن وأقعده المرض كما خمَّنت عمتي. نهض معكَّر المزاج يتحرّك بثقلٍ بادٍ وبحركات بطيئة وهو يستند إلى عكاز ويتذمَّر من طلبي.

قبل أن تسألني عمتي، أسهبتُ في وصف عجز الرجل وتماديتُ

في وصف قبحه. وصفته بِأنه ذميم، ويتحرَّك بصعوبة، وأنه لم يستطِع جلب الآنية إلّا بعد أن استعان بعكازه، وتوكّأ على رف، وأنها كادت أن تفلت من يده.

أنهت عمَّتي استمراري في الوصف في حزمٍ ونحن نغادر:

لن نزوِّجه أمك.

عند عودتنا خيَّم عليّ خوف من أكون قد أغضبتُ أمي بما حكيته عن الرجل. لكنها نزعت عن وجهها ما دثَّره من قلق في أيام الخطوبة، وحلَّ محله ابتهاج ومرح. نهضَت وأعدَّت لنا عشاء شهياً. كنت فرحة لأنّ أمي لن تتزوج بالرجل الهرم. تمنيتُ لو تتزوج بِيَحْيَا النْسَا.

تلقي عمتي حكمتها:

ليتنا خلقنا من دون بطن ومن دون أسفلها. النصف السفلي من جسد بني آدم هو سبب تعاسته. لو لم نكن نملك ذاك الشبر المعذب لكنا سعداء.

تفسّر أكثر:

لو كنا خلقنا دون رغبة في الأكل، ودون رغبة في المعاشرة، لكانت الأرض جنَّتنا الصغرى.

علَّقت عليها أمي:

الضنى أكبر. ليست البطن وما تحتها وحدهما السبب. السبب الآخر هو الشبر الفوقي من الجسد الذي يحتوي على الرأس. الله يرحم يَحْيَا النْسَا وهو حي. أليس هو القائل: العذاب الأكبر يأتينا ممّا حُشِر في رؤوسنا!

منذ أن اختفى والدي صار يحيا النسا يزورنا مساء كلّ جمعة حاملاً ما يتصدّق به علينا من خبز وزيت وغيرهما. يحمل عصا طويلة يؤنث قبضتها شكل مصغر لقبّة من نحاس ويحدّ قاعها قطعة حديد حادة، وقد ربط عليها مناديل الرأس لنساء قدَّمْنَها له تبرّكاً. يُلقي لازمته يحيا النسا وهو يصعد تلّ حجر الفرشي ليصل إلى بيتنا. يكرِّر

اللازمة أمام الباب وكأنه يُنذِر نساء البيت بقدومه.

أوّل مرة زارنا فيها يوم كانت أمي مريضة بعد غياب والدي، وبعد أن ذاعَ في القرية أنّ شفاءَها يكمن في شرب حليب يرطِّب حنجرتها وقلبها. ليلتها حمل لنا جرة من اللبن.

ليوم الجمعة وقعٌ خاصّ على حال الرجل. فبعد أن يحرص على أداء صلاته مع باقي المصلين في مسجد القرية يستعدّ للسباحة في لجّة جنونه. يربط رأسه بقطعة ثوب خضراء ويرتدي جلبابه الصوفي المطرّز بورود من خيوط ملونة ويبدأ في صياحه يحيا النسا... يحيا النسا، يعقبه بلعن الرجال، كلّ الرجال، يلعنهم ويتهكَّم عليهم ويُفاخر بشجاعة النساء.

بعد الظهر يصبح المجذوب عنيفاً. يخرج وهو يحمل بندقية صيد على كتفه، ويصير عكازه سلاحاً مهيباً بأسفله الحديدي المدبّب. يجول حاملاً باقة من الأزهار، يقدِّم زهرة لكلّ امرأة أو فتاة التقى بها في طريقه وهو يصيح:

الورود للورود، أمّا الأشواك فهي لمَن بداخل رؤوسهم أشواك. قبل أن يوضح، أمّا الأشواك فهي للرجال.

الرجال يومها يتحاشون اللقاء به لأنه سيستفسرهم عمّا يقومون به ساعتها، قبل أن ينهال عليهم بالتقريع والشتم، وقد يلوح عليهم بعصاه متّهماً إياهم بالتقاعس عن العمل، والاتكال على النساء الخلائق الرقيقة قبل أن يخفض من حدّة غضبه ليوصيهم:

رفقاً بالقوارير، رفقاً بالقوارير.

رجالُ القرية يهابون مواجهة الرجل القوي الطويل العريض الذي كان إنساناً ودوداً قبل أن تحرقه نار الأنثى. عند اقتراب المساء

يخبو هيجانه ويعود يستسلم لرقته المعهودة.

الغابة المحيطة بقريتنا، مشتل أسرار، وسرّ جنون الرجل. من قلب أحراش الغابة خرج يوم جمعة يرمي بعمامته وجبَّته ويصرخ ويُصَيح. ذُهِلَ يومها أهل القرية وحاول الرجال تهدئته. تخمد نار هيجانه حيناً وهو يستعيذ بالله ممّا ألمّ به، قبل أن يهيج من جديد كلما حاول الرجال التوجّه به إلى بيته. بمسجد القرية أرخت السكينة أجنحتها على روحه، وهجره ما ضربه من خبل، ورقد ليلته بعيداً عن بيته الذي ظلّ تلك الليلة فارغاً من أصحابه.

نَزَعَ حلول الفجر السكينة عنه، ونَزَعَ الرجل وقاره الذي عرف به، ونزع ثيابه وخرج عارياً يصيح ويسبّ، ويلعن الناس والدنيا أمام الرجال الذين يؤمون المسجد لصلاة الفجر، بصوتٍ وَصَفُوه كصوتِ غولٍ مجنون. شدّ الرجال وِثاقه وأدخلوه إلى بيته ولازَموه.

سبعة أيام بعد ذلك ظلّ الرجل في بيته ساهماً صموتاً، لا يردّ على نداء أو سؤال إلى أن حلّ يوم الجمعة. فخرج في حلَّته الجديدة.

في البداية كانت أمي كباقي نساء القرية تهاب الرجل. خوفاً من جنونه تأمرنا بأن نلجَ البيت قبل أن يعمّ الليل، ثم تقفل الباب جيداً وتعمّده برَكيزة من الداخل.

فزع أهل قريتنا من الرجل سريعاً ما تبدّد حين صار الرجل يساعد كلّ امرأة شاهَدَها تقوم بعملٍ مُجهد. صارَ يحتطب مع الحاطبات، ويأخذ الفأس من يد مَن تعتني ببستانها، ويحمل رُزم الحطب عن مَن تقوّس ظهرها مِن حملها الثقيل.

خاطَب مقدم القرية حين اعترض طريقه وطالبه بتسليم بندقيته:

لا تخافوا مني فأنا لي قلبُ حمامة. لو كنت أستخدم بندقيتي

لكنت قد أطلقتُ الرصاص على زوجتي وهي ممحونة تحت ساقَي افْرِيفْرْ ولكنت أرديتهما قتيلين. كيف سأؤذيكم أنا الذي لم أؤذِ زوجتي وعشيقها وهما يتقلّبان عاريين دون ورقة تحمي عوراتهما أمام عيني.

ما حكاه اليافع افريفر لصديقه الذي سرعان ما أفشى سرّه، جعل سمع القرويين التوّاقين إلى معرفة الجنون الغريب والمفاجئ للرجل يرتوي.

- إنها ليست امرأة، بل جنّية في جسد امرأة. راودتها عن نفسها ورفضَت، راودتُها شتمتني وهدَّدتني بفضح تحرّشي بها لزوجها. إلى أن التقيتُ بها في الغابة وشياطين الغابة قد تلبَّستها وتلبَّسَتني. كانت ترعى مَعزها وكنت أسوق حماري إلى أرض بور في الغابة. للغابة وشياطينها وَقْعٌ غريب على نفس الإنسان، نعم صمت الغابة وهسيسها جَعَلا قلبي يهفو نحو ما حلمت به.

هذه المرة لم تكن تلك التي اعتَدتُ صدّها لي، كانت شيطانة متلبّسة في جسد امرأة حين انقضَّت عليّ. لم تتركني أتنفّس. اشتعلنا من دون كلام وقودنا الرغبة والقبل والعضّ والرهز.

لم يطُل التحامنا حتى شعرت بأنّ كائناً ما يراقبنا، قلت لن يكون سوى شيطان الغابة وقد شدّه ما رأى. اعتراني الخوف. حاولت جاهداً أن أهرب منها، لكنها كانت تقبض عليّ بمخالب من شبقها قولاً وفعلاً. ما ظننتُ يوماً أن أرى من امرأة ما رأيته... وأسمع من امرأة ما سمعته... كانت تتكلّم تصفُ وتُفرقِع فحشاً كالرعد. فحشٌ يولِّد فحشاً.

في هذيان فحشها وفي سَفَر منكرها سمع زوجها حظّه من

الشتم والطعن في رجولته. كان تقريعاً ووصفاً مفصّلاً... كانت تتهمه بعدم المعرفة... تقلّل من قيمته وتمدحني من أخمص قدمي... تستثيرني... تهيّجني... وتجنّنني. شيطانات الغابة حلّت بها وألهَمَتْها فجورها.

أقوال وأفعال الغنج والفحش لم تقطعها إلّا بعد أن علا صوت زوجها الذي أعياه صمته صارخاً ممّا رأى وسمع. كاد قلبي يخرج من صدري حين وقف بقامته المهيبة وبندقيته في يده. قلت إنه آخر يوم من أيامي، ويا لها من نهاية لي بسبب هذه المرأة الداعرة.

انحنى الزوج المخدوع قرب جذع شجرة، واحتمى ببندقيته كعكاز وبكى. بكى كطفل ثم همهم، فرقع، وقفز بعيداً عنا هارباً. نعم هَرَبَ وهو يُطلق صيحة سَلَبَت روحي مني. لَعَنَ الجبال الصماء وغادَر يجري بين الأشجار كحيوان مضروب بالرصاص. جمعتُ سروالي وقفزت من بين فخذيها واقفاً وأنا أتعصّر من شهوتي الفاجرة. هرعتُ بين الأحراش تاركاً المرأة تلعن اليوم الذي خلقت فيها تلك الرغبة، واليوم الذي ضعفت فيه أمام إغوائي وإغواء الشيطان، واللحظة التي تلبَّستها فيها شياطين الغابة والجسد.

انتشرت حكاية يحيا النسا في قريتنا والقرى المجاورة وأضحَت قصّة مدعاة للغرابة، وموضوعاً لسمر رجال القرية ونسائها وأطفالها. ردَّد الناس كيف أنّ الزوج في إحدى خرجاته ليصطاد طير حجل تتلذّذ زوجته بمذاقه، ضَبَطَها في الغابة بين ساقَي اليافع افريفر. قيل إنّ الرجل ضبطهما في أوج فعلهما، والمرأة في أوج لذّتها تلفظ بصوت مرتفع كلمات من الغنج ما لفَظَتها يوماً معه وفراش الزوجية يهتزّ، هو الذي لم يظنّ يوماً أنّ زوجته تعرف مثل تلك الأقوال، وأنها

قد تنطق بمثلها يوماً. لم يكُن كلام ابنة آدم لما فيه من نيران فحشٍ حارقة للروح والفؤاد. كانت المرأة قد جُنَّت بما كانت غارقة فيه من بحرٍ عجيب لم تذُق لذّة صفعات أمواجه يوماً من قبل. فقيه قريتنا أكَّد أنّ الجنية التي تلبَّست المرأة شلّت زوجها ودعته ليعجب بما يرى، فظلّ لا يتحرك وهو يسترق النظر ويتلذَّذ من ذاك العذاب عوض أن يثأر لكرامته ولشرفه وشرف كلّ الرجال.

لاذَ الرجل المخدوع ببيته للأسبوع الثاني، ولم يخرج إلّا ليعترض طريق إخوة زوجته الذين حضروا من قريتهم، مدجّجين بالسكاكين والخناجر وغضب الانتقام ليثأروا لشرفهم الذي أهدرته أختهم، بقتلها. المرأة كانت قد رحلت عن القرية دون معرفة وجهتها.

خرج الرجل ووقَفَ يواجههم والبندقية في يده وهو يُقسِم أنه سيقتل كلّ مَن اقترب من زوجته التي ما زالت في عُهدته، وأنه سيلاحق براً وبحراً مَن يتعرَّض لها بالشر ولو كان أخاً لها. جدّية الرجل وهو يرمي بتهديده وقَسَمه، وحُمرة عينيه، والزَّبَد الذي تناثر من فمه وهو يهدّد، ألجَمَ إخوتها عن نيتهم فعادوا إلى ديارهم.

تحكي عمّتي:

مرض يحيا النسا حتى قِيْلَ إنه أصبح لا يميّز أهله عن الغرباء. حمله أقاربه إلى العديد من الأضرحة واستقدموا له العديد من الفقهاء مدجّجين بطلاسمهم. حين يئسوا نطَقَ هو باسم ضريح لَلاَعَايْشَة. مزارٌ لم يكُن يُسمح للرجال أو للأطفال الذكور بزيارته. وحدهن النساء والثكالى والصبايا المريضات والمحزونات بالحب ومن الحب كُنّ يزُرنه.

بعد غياب والدك كثيراً ما نصحت النساء أمك بزيارة ضريح

السيدة. قلن لها إنها الوحيدة العالِمَة بألم المرأة حين تفقد زوجاً وحبيباً، وإنها الوحيدة القادرة على مساعدتها للشفاء من آلامها. لكننا لم نجد مَن يُشاركها الطريق. فالضريح يقع بعيداً عن قرانا والسفر إليه طويل ومتعب.

يحيا النسا عند وصوله طلبَ من أهله أن يُترك لوحده داخل الضريح. قوة الرجل وشراسته تحوّلت ضعفاً ولطفاً. ظلّ الليل يحكي ويبكي ويحكي ويئن.

حدّثنا أخوه الذي رافقه أنه ليلتها شعّ القمر نوراً فضياً، وأنه مع أول خيوط الفجر والظلام ينسحب من الدنيا، اندلقت من فم أخيه صيحات: يحيا النسا.. يحيا النسا بصوت ليس هو بصوت إنسان، وبقوة وصلَ صداها إلى الجبال الخرساء فانقشعت السماء بعد ضربة برق. أضاف أن الضريح كان يهتز عندما كان أخوه يردِّد صيحاته. وبعدما هدأ، أطلّ قلب الضريح فرأى للاعايشة الولية الصالحة التي توفيت منذ قرون تحتضن أخاه المريض وتمسح رأسه بلُطف وحنان.

عاد الرجل بعد الزيارة هادئاً، حنوناً منصاعاً لا يذكر زوجته ولا يُثيره اسمها، وإن سُئل عنها لا يردّ، ظلّ ساهياً لأيام قبل أن يعود شروده ينطقه دفعة واحدة بصوت جهوري دافئ وهو يستعدّ لجولته في القرية ويصيح:

- اللعنة على القلوب الصماء... يحيا النسا... يحيا النسا...

حلّ فصل الشتاء. لا خبرَ عن أبي. قلَّ ما يتصدق به علينا يحيا النسا. لهذا الفصل في قريتنا اسمان فصل الشتاء وفصل الجوع.

إمام مسجد قريتنا يدعو الأهالي للاستعداد له:

استعدوا للبرد والجوع كما تستعدون للحرب.

يأتينا الهجوم في البداية بريح تنزل من أعالي الجبال على تلال القرية وعلى أجساد أهلها محمَّلة بكتلات من البرد. تبرد الأحجار والأشجار والنباتات والبهائم وتبرد أوصالنا ولو داخل بيوتنا، وتتضاءل بطوننا وأجسادنا من البرد والجوع.

وجبتان في اليوم، عادة من الخبز والفول أو من شوربة القمح المهروش والذرة الحمراء، غير كافيتين لدرء الجوع الذي يستيقظ في بطني مع استيقاظي من النوم.

في الصباح الباكر أُخرِج الماعز إلى الغابة وقبل أن ينتصف النهار أجد نفسي جائعة أجول بنظري بين أشجار الغابة. حبات القطلب البري التي تلهيني حلاوتها عن الجوع سرعان ما تتعفّن حين يصبّ المطر بقوة.

الوجبة الثانية لا نتناولها إلّا ليلاً، بعد أن تكون سياط الجوع قد

ألهبَت أمعائي. حين تلدُ لنا إحدى الدجاجات بيضة يكون يوم فرح. لا حليب ولا زبدة لم نتذوّقهما منذ أخذ أبي البقرات إلى الوادي. كنت أسعد في الأيام التي كان ينبت فيه الدرشيش، عسل أشجار الفُتَاحْ. أبحث عن شجيرات الفتاح وأنزع تلك المادة الهلامية اللزجة النابتة على لحاء جذوعها. كانت لزجة كالعسل لكن من دون حلاوتها، بل من دون مذاق. كنت آكلها باشتهاء أكل العسل. آكل منها وأحمل لأمي وعمتي التي كانت تسميها عَسل مَن لا عسل لهم. أيام عسلنا كانت قصيرة فما أن تتوقف الأمطار حتى يتجمّد ويصبح مذاقه مراً يُسبب الغثيان، وعلينا انتظار المطر القادم.

المطر يساعد على نمو حبات البطاطس البرية التي تنمو بين الحشائش على ضفاف النهر، والتي نعوِّل عليها أحياناً لتغذيتنا وتغيير مذاق نبتة بقول الرُجْلَة، والتي رغم طهي أوراقها جيداً تظلّ برائحة ومذاق العشب الأخضر.

سُمك وكثافة حبات المطر تلك السنة جعلت حبات البطاطس تنضج سريعاً. أحفر بيدي على جذورها فلا أجد إلّا حبات متعفّنة تحت التراب، تخترق أصابعي لزوجتها العفنة وتلتصق بأصابعي ديدان لزجة تحسِّسني بالغثيان فأتقيأ. أعود إلى البحث عن نبات البقول، أقتلعها وأغسلها في ماء النهر. تفرح أمي عند عودتي، تشرع في تنقيتها وهي تعرِّفني على النباتات الضارة والسامة منها.

وأنا أعود من الرعي صرتُ أتعمّد المرور بمعزي بالقرب من باب بيت نعيمة. أحياناً كانت تخرج وتسلِّمني كسرة خبز وحبات تين مجفّف.

نعيمة امرأة جميلة غريبة وحيدة حلَّت في قريتنا منذ سنوات. اشترت بيتاً مهجوراً وقامت بإصلاحه. البيت سرعان ما أصبح مزاراً لرجال القرية، وبيتاً ملعوناً من قِبَل نسائها اللواتي حاولن تهجير صاحبته بدعوى أنها امرأة ساقطة حضرت إلى القرية لتخطف منهن أزواجهن ودراهمهم القليلة، لكن الرجال مساندين من مقدم القرية وَقَفوا في وجههن.

عمتي كانت تصفُها بأنها تملك ما تملَكه النساء، لكن تفعل مع الرجال ما لا تفعله باقي النساء، فلهذا عَشِقَها كلّ رجال القرية، ومَن لم يستطِع معاشرتها من فرط حبّه لزوجته أو لتقواه كانت زوجته تقول إنه كان يحلم بها.

تلصُّصي على باب بيت نعيمة تعمّدته أكثر ذلك المساء البارد من الأيام الشتوية، حين هفّت علي رائحة طبخ لذيذ. برودة الليل والجوع جعلاني أشعر أنني عارية في مواجهة البرد. أنكمش في ما ألبسه من ثيابٍ مبللة، وأسرع للوصول إلى باب بيت المرأة.

توقَّفتُ قرب حوش بيتها وناديتُ على الماعز. أطلتْ بقائي. فتحَت المرأة الباب وأهدتني برتقالة. احترتُ في أن ألتهمها أم أحتفظ بها لأمي وعمّتي. حاولتُ أن أعاند جوعي، قبل أن أقشِّرها وأرمي بفصوصها في جوفي. أغمضتُ عيني، وكأنني بإسدال جفوني أغلق ذهني عن التفكير، ولا أرى نفسي حتى لا أشعر بالذنب. كانت البرتقالة لذيذة.

وصلتُ إلى البيت وأنا أشعر بذنبٍ موجع. وجدتُ عمتي تشتكي من ألم برأسها ومن الحمى. ما شربته من شاي محلّى خفَّف

عنها الألم، لكنه لم يطفِئ لظى حرارتها كما قالت. تجرأتُ يومها وخلعتُ عني ما يقيِّدني من خجلٍ ورجعت إلى بيت نعيمة. كنت كمَن يزحف على قلبه، أرتعش ورأسي يسبح في أشياء لا أدريْ كنهها، وقفت أمام باب بيت المرأة مترددة قبل أن أطرقه بجرأة ورهبة. لم يختفِ ارتعاشي وأنا أخاطبها:

عمَّتي مريضة وحرارتها مرتفعة، أرجوكِ مُديني ببرتقالات لعلّها تشفى.

النظرة المتسائلة والحزينة لنعيمة نحوي لم تَطُل. دخلت البيت وأخرجت ثلاث برتقالات وهي تطلب مني أن أبلغ سلامها إلى عمتي، وتمنياتها لها بالشفاء.

كان فرح عمتي غامراً وهي تتناول حبات البرتقال وترضى عليّ وتدعو للمرأة. قالت إن البرتقالات أطفأت ظمأ داخلياً لها وإنه لَجَميل أن نموت ونحن مرتويات من عطشٍ وشبعانات من جوع.

في الغد ارتسمت ملامح الليل القاسي ببرودته باكراً في الخارج. كنّا نتدفأ أمام مجمر الفحم حين شققت أمي دفّة باب البيت، فهجمت علينا ألسنة الريح حاملة معها هبَّات من البرد تلسعنا. عادت وأغلقت الباب وطلبت مني أن أتدثّر بمنديلها الصوفي الكبير وأتبعها.

المدى بألوان الليل. انطلقتُ خلف أمي. كان الليل يسدل حولنا تلابيبه غير المنيرة والسحب تهربها الرياح. ضوءٌ رمادي أسود ينبعث من السماء. تفاجأتُ بها تعرج على مسلك دار نعيمة. خمَّنتُ أنها ستشحذ منها ما قد نأكله.

فاجأني جسمٌ منكمش قرب الدار. ارتعبتُ حين تحركت جارتنا ميمونة نحونا. ضربت المرأة سماط الحطب المكون لحوش البيت بعصا قبل أن تخرج نعيمة، وتقدِّم لنا دلواً صغيراً به سائل دبق وأكياساً فارغة من الكتان.

سرتُ خلفهما غير عارفة لما نحن مقدمات عليه. تقدّمنا وعرجنا خلف قريتنا بين أشجار الغابة قبل أن نلفّ على تلّ لنصعد مرتفعاً. قطعنا طريقاً غابوياً بحزم وخطوات مسرعة. التففنا خلف تلّ مشجر بأشجار البلوط وشجيرات الخلنج.

رغم أنني أعرف الطريق إلّا أنّ درايتي بمسالكه انتفَت مع ظلام الليل. صار بالنسبة لي مسلكاً تقصفني جنباته برهبة وفضول. مشينا وقتاً غير قصير.

من خلف تلّ بَدَت لنا أرض يسود امتدادها أشكال أشجار كثيفة. كنّا نلفّ خلف حديقة ومنزل السيد الذي ننادي عليه في قريتنا بالشريف حيون أو الشيخ حيون. المنزل الوحيد في قريتنا الذي يعلو سقفه قبّة من قرميد أخضر. حين كنت أمرّ بالقرب منه أو أطلّ عليه كنت أظلّ أحدّق فيه بإعجاب لكبره وكثرة أعمدته وبابه الأخضر الواسع، كما كانت تُدهشني حديقته الفسيحة المشجّرة بالعديد من أشجار البرتقال والبرقوق بأشكاله وألوانه المختلفة، والتفاح والإجاص والكرز والتين. أهل القرية كانوا يقولون إنّ الحديقة تُقارب مساحة قريتنا التي تشحّ فيها الأراضي المنبسطة حيث لا يملك القرويون إلّا بساتين جدّ صغيرة، يتمّ استخراجها من بين المنحدرات بعد رصّ تربتها بالأحجار والشجيرات، حتى لا تجرفها المياه.

انحدرنا حتى وَلَجْنا فجاً بين تلّين. بدأت أقدامنا تتوغّل في تراب مضمّخ بالماء، إلى أن وصلنا إلى منفذ ضيق بين صخرتين، مسيّج بأسلاك وأشجار أشواك ملتحمة فيما بينها.

وقفنا أمام الحاجز. أحاطت أمي يديها بالمنديل وصارت تزيح أغصاناً من أشواك. قالت لي إننا سندخل زاحفات وأنه علينا أن نتبعها وأن لا نخاف. تسلّلنا نزحف وميمونة تقدم الدلو أمامها.

جفلت حين ارتفعت أصوات غريبة بعيداً عنّا. صار صداها يقترب. أمرتنا المرأة بأن نتوقّف عن الزحف حين بانت أشباح

متموّجة وأطياف طيور كبيرة الحجم تتقدم إلينا وهي تطلق صوتاً زاعقاً. لبثنا جامدات وهي تقترب وبطبطتها تتعالى بقوة.

قالت بصوت خافت:

لا تتحرّكا. إنها طيور البطّ الحارسة للضيعة. الطيور تصيح لأنها خائفة.

مدَّت أمي يدها نحوي وأرقدتني على التراب. أخرجَت من الدلو فتات الخبز المغمّس في السائل ونثرته أمام البط التي انشغلت بالتهامه، ونحن جاثمات في مكاننا منبطحات على بطوننا فوق التراب الموحل البارد.

مرّ وقت قبل أن يعلو صوتٌ من بيت الشيخ حيون الذي كان يقبع بعيداً كتلٍّ من البياض قلب المدى الأسود. كان صوت عبد الستار الرجل المخلص للشريف والحارس الساهر على حقله وبيته في غيابه، والقائم بأعمال حرث الحديقة والاعتناء بأشجارها. أطلق الحارس طلقة بارود. وجلت كثيراً. أمي وميمونة كانتا ممدّدتين على الأرض وقد خفضتا رأسيهما، لكن لم يظهر عليهما أنهما خائفتان مثلي.

كان يُشاع في القرية أن عبد الستار مدينٌ للشريف حيون بشفائه ممّا ألمَّ به من رهاب من الحيات الغافية بالبركة السوداء، فلقد كانت تعترض طريقه نهاراً ونومه ليلاً. الوسواس الأليم سكنه منذ أن كان الرجل يافعاً شجاعاً، ودفعه طيشه إلى تهشيم وكسر بيضاتٍ وجدها في جحر بجانب البركة. شلّه الرعب حين خرجت من بين قشور البيض المهشّمة أفاعٍ صغيرة تتراقص أمام قدميه. أقعَدَه المرض بيته ولم

يعُد يفارقه لسنوات إلى أن أرقاه حيون بإحياء ليلة ذكر، شفي الرجل على إثرها من وساوسه. ممتناً للرجل وَهَبَه عبد الستار قطعة الأرض الوحيدة التي كان يملكها وصار خادماً له وحارساً أميناً لحديقته. لم يكُن يمدّ يده ولو إلى حبة فاكهة من أشجار الفواكه العديدة مَخافة أن تؤذيه بَرَكَة الشيخ، ويعود له مرضه وأوهامه، وتسلّط عليه الحيات من جديد في نومه ويقظته.

ميمونة كانت تعلم أنّ الرجل لم يتخلّص كلياً من مخاوفه التي ظلَّت تكبِّله، وتمنعه من أن يبتعد من باب البيت الكبير ليطَّلع على ما يحدث. كان يعتمد على البط التي جلبها الشريف للقيام بدور الحراسة لأشجار الحديقة.

الشريف حيون صاحب الحديقة وحفيد «الشيخ حيون الكامل» له إيمان خاص بطريقة حراسة جنانه. مقتبساً من فكر جدّه الأكبر كان يعتبر أنّ الكلاب غير محبَّبة عند الله، وأن تربيتها مكروهة، وأن الله هو الحارس لعباده، فقد اتخذ من البط حراساً لحديقته مؤكّداً أنها وسيلة إنذار فعالة. كما أنّ الطيور هي ملجمة شرور أفاعي البركة السوداء.

جارتنا ميمونة وأمي لم تكونا تشاطران الشريف رأيه، وإلّا لما قدَّمَتا لها ذلك الخليط الذي عرفت فيما بعد أنه شراب مخمّر ومُسكِر مصنوعٌ من التين المغلى في الماء مع بذور حشيشة الكيف وفتات الخبز. نعيمة هي مَن كانت تقدِّم الخليط إلى ميمونة شرط أن تأخذ حصَّتها من البرتقال الحلو.

ظللنا منبطحات دونما حركة بينما البطّ تُقبِل بنَهَم على الفتات

الممزوج بالسائل اللزج. كان البرد يخترق ما ألبِسُه ليغرز سهامه في جسدي. أتمنى أن نتحرك ليعود لي الدفء. أتململ فتوزوز البطّ، لكن بصوت غير مرتفع هذه المرة. خفَّت بطبطتها وأصبحت متقطعة وخافتة. أرخت اثنتان منها الرأس ورقدتا، تَبِعَها باقي الطيور. تحركنا ساعتها. تطلّعت إحداها نحونا وأرسلت صوتاً متقطعاً قبل أن تُلقي رأسها على صدرها غير مكترثة بنا. زحفنا بسرعة إلى أشجار البرتقال.

كنت مندفعة أتنقل بين الأشجار قاطفة ما تصلُ إليه يدي من برتقال. لا أبالي بالجراح التي أدمَت أصابعي وذراعي. ملأتُ كيسي وجرجرته لثقله في الوحل، قبل أن أحمله على ظهري. أهدينا نعيمة حصَّة ممّا قطفناه.

بعد عودتنا أعددتُ طبقاً من البرتقال وقربته من عمتي. أقشِّر وأطعِمُها وهي تلتهم الحبات بنهمٍ وتدعو لي.

على غير عادتها كانت سماء قريتنا التي تتهيأ لاستقبال الربيع رائقة وهادئة وألوانها الجديدة تحلّ ببطء لتمسح ألوان غضب أيام الشتاء. شذى رائق ينبعث من أوراق وأزهار أشجار الغابة التي تفتحت.

حلول إشراقات فصل الربيع لم تشرق علينا بخبرٍ يقين عن والدي. لم يغيِّر من رتابة أيامنا سوى خبر حلول شيخنا الشريف حيون الوارث لسرّ وبركة جده الشيخ حيون الكامل لمعاينة أراضيه، ولتجديد عهده مع الطيور وأفاعي البركة السوداء.

يسري بين أهل القرية أنّ السماء اكتسحها الصفاء المبكر احتراماً لقدوم الشريف. لكنهم يظلّون متوجّسين من أن تهاجمها الرياح الشرقية. فإن تلبدت السماء تتلبد نفوس السكان قلقاً من أن يكون حفيد الشيخ الكامل غير راضٍ على طريقة استقباله مع حاشيته، خاصة وأنه حضر إلى ضيعته بعد سنتين من الغياب.

سَرَت شائعة أنّ حضوره في فصل الربيع كان من أجل علاج أحد رجال الدولة الذي أصيب بشلل مفاجئ، بعدما عجز أطباء المدينة من علاجه، فأفتوا عليه بأن يتوجّه عند حيون ليُقيم له ليلة

ذكر وطقس اغتسال من الشلل بغدير الأفعى. وبما أنه لا يستطيع الاغتسال في الغدير أيام الشتاء فسيُقام طقسُ شفائه في فصل الربيع.

وقبل أن يغتسل المُريد العليل من مرضه، يغتسل أهل القرية من أدرانهم وحياتهم البائسة بحلول الشريف مع فقرائه ومسمعيه. حلّ الموكب على إيقاع الطبول والمزامير والسيد وأتباعه يركبون الخيول والبغال، بعدما تركوا سياراتهم في سفح أسفل المدشر. استقبلهم القرويون أطفالاً، نساء ورجالاً بملابس العيد.

تحلّ بقريتنا البركة وينشر جوّ من الفرح، ويقلّ الحديث عن الفقر والرهبة من أفاعي البركة السوداء. ويعمّ الأنس ليالينا وكذلك منزل وضيعة السيد. مريدوه يدعون إنه بحضوره تقترب الأرض من العطاء، وتقترب أفعالنا من السماء، ولكلٍّ امرئ ما نوى، ولكلّ امرئ أجر عند الله بقيمة ما أعطى للشريف.

يتوجّه أهالي القرية إلى المنزل الكبير محمّلين بما يملكون من خبز أبيض وسمن ودجاج وبيض للسيد وحاشيته. مَن يملك عدداً من الماعز يتصدّق عليه بواحدة. العريبي الذي هجر التلّ الأصفر منذ حادثة أبي وأخته أرسل خادماً له بثورين سمينين. عدد من أهل القرية ممّن لهم إيمان راسخ بقدسية الرجل، ملّكوه بساتين كانت ملكهم الوحيد. الرافضون كانوا يلتقون في منامهم بأفاعٍ تنفث ناراً تحرقهم مع أهلهم.

بعدما رفضتُ أن نهديه جدياً صغيراً، قدّمت له أمي دجاجتين وعدداً ممّا وفّرناه من البيض.

تكبر مهابة الرجل في نفوسنا حين يُشاع بين أهل القرية أنه جاء ليجدِّد عهده بطريقة سرية لا يعلم تفاصيلها إلّا هو، مع ملكة حيات البركة حتى تحفظ أرواح حاصدات البردي، ولا ندري لِمَ الرجل لم يحضر قط فترة حصاد البردي!

في الليلة الأولى حضر الأهالي إلى دار الشريف فرادى وجماعات لاستقباله والتبرّك ببركته. واللون الأحمر الناري للغسق ينسحب، وينشر من تلابيبه سواداً حنوناً، والبدر في تمام سطوعه وبهائه، ارتفع من قلب الدار صوتُ رجلٍ بموال شجيّ طروب، نداء منغوم، يتغنى بالحب، ويشكر الحياة لأنها من خضم أنوائها أتاحت لنا أن نحبّ، وأتاحت لنا أن نلتقي بالشيخ حيون صاحب الكرامات.

كانت نداءات الرجل الغنائية تتمطى حنونة في قلبي. صوته العميق الشجيّ سحَرني. الرجل طويل أبيض الملامح تزيِّن رأسه عمامة بلون أبيض وأصفر مذهّب تنعكس نصاعة ألوانها على وجهه. ذكَّرني بأبي. ارتسم والدي أمامي رجلاً في بياض ناصع، وعينين باسمتين.

قلت لعمتي إنني معجبة بصوت الرجل وسحر كلامه قبل أن أضيف:

إنني معجبة به.

علّقت عمّتي بما أحرَجني مخاطِبَة أمي:

البنت كبرت وبدأت تعشق ونحن ما زلنا نفكر في إلحاقها بالمدرسة...

في صباح الغد ألبَستني أمي ملابس نظيفة. لكي نعوِّض هديتنا البسيطة للشريف كان عليّ أن أتوجه لمساعدة النساء الخادمات في بيته. توجَّهتُ إلى قصره يسبقني فضول رؤيته عن قرب.

أدخلتني زبيدة الجميلة والقائمة بتوزيع المهام على النساء الخادمات على الرجل بعد استئذان. كان يتربّع فراشاً مُحاطاً بلحافات ملوّنة. وجهه صبوح نضر وعيناه مكحلتان ولحيته المنسدلة مصبوغة بلون برتقالي فاقع. فعلتُ وأنا مرتعبة ما فعَلت المرأة من انحناء وتقبيل ليده. أخبَرَته المرأة بأنني ابنة العائلة المغدورة، وحين رفع عينيه متسائلاً أفهمته أنني ابنة الزمّار الذي غبر مع عشيقته ولم يُعرَف عن غيابه خبر، وأنّ عمتي عمياء وأمي وحيدة لا تقوى على مواجهة الزمن.

مدَّ الشيخ يده ومسّد شعري، قبّلتها وأنا أحسّ بأمان. خاطبني:

أبوكِ كان رجلاً عنيداً يتطاول على الجبال... فليغفر الله له.

رجَتْه المرأة أن يدعو لنا بعودة الأب وبالستر في الدنيا والآخرة، ويدعو لعمتي بأن يعود إليها بصرها. هزّ رأسه موافقاً وقال في تطمين:

سأفعل ذلك في الليلة الكبرى إن شاء الله.

صرتُ أساعد في جلب الماء والحطب وفي طهي الخبز وكنس المنزل وفنائه وجمع الحشائش. بعد تناول الفطور يخرج رفاق الشريف من أهل المدينة يتفسّحون بين أشجار البستان الكبير. كانت تبهرني رؤية نساء المدينة وزوجاته المختلفات في السن. للامْكلثوم هي الزوجة الآمرة وصاحبة الحظوة تظهر عليها علامات الشيخوخة،

بينما للاحفصة أصغرهن تُقاربني سناً والأخريان يقارب سنهما عمر أمي وعمّتي. لم يكنَّ مثل نساء القرية يتدثرن بالمناديل والفوطات، بل يرفلن في قفاطين مزركشة جميلة الألوان وينتعلن نعالاً من جلود مذهّبة زاهية.

في الليل كنت أعود حاملة لقطع من الخبز الأبيض اليابس الذي تجود به عليّ زبيدة مرتِّبة أمور الدار.

صباحاً كنتُ أنظف الزريبة من روث الماعز التي تمّ إهداؤها للشريف ومن أوراق الأشجار التي يرمي بها الريح، هبّ صوت الرجل مرتفعاً من داخل المنزل ينادي على زبيدة. كنت قد رمقتها تمرّ حاملة لدلو ماء متوجِّهة إلى الحمام في الجانب التحتي من المنزل الكبير. كنت أعلم أنّ تلبية طلباته واجبة، فهرعتُ لتلبية ندائه الملحاح على المرأة. دون احتراس مني دفعت باب غرفته لأطلعه على وجهتها. كان الرجل عارياً تماماً ومتوثباً... كل أعضائه كانت متوثبة... كأنها ترغب في افتراس المقترب منها... كانت صدمة لي أن أرى رجلاً عارياً. شعر جسده كان واقفاً منثوراً يغطي معظم جسده كأشواك حادة. خفتُ أن تلحق بي لعنة من لعناته كما وقع لجدّنا الكحيلة يوم تلصَّص على عري أبيه. طلبتُ منه المغفرة وأنا غارقة في إحساسي بالذنب وفزعي قبل أن تطير مني دهشتي حين زجرني وهو يسبّ:

سيري يا بنت الحرام، نادي على زبيدة.

لم أعُد أذهب إلى منزل الشريف. ادَّعيتُ المرض. تملّكني الندم لدخولي عليه وهو عارٍ، واستباحني الخوف ممّا قمنا به من

سرقة برتقال حديقته. فاتحتُ عمتي فيما يمحقني من خوف وحكيت لها واقعة المنزل. طمأنتني:

إنّ الشيخ الذي يختلي بزبيدة المرأة الجميلة المتزوجة من أحد تابعيه هو مَن عليه أن يحسّ بالذنب وهو يفعل المنكر، أمّا نحن فلم نسرق إلّا درءاً لجوعنا، والله يغفر للجائعين حين يمدّون أيديهم إلى ما يسدّون به رمقهم.

صباح الليلة الكبرى أمرَتني أمي أن لا أخرج الماعز للرعي، قضيتُ اليوم أسخن الماء وأساعد عمتي وأمي في الاغتسال.

استشعرت نفسي نظيفة وأنيقة وأنا ألبس كسوة من ثوب ملوّن بأزهارٍ ساطعة الألوان، وأدثّر نصفي الأسفل بمنديل مخطّط بالأحمر والأبيض ينزل إلى قدمي، وأضع على ظهري فوطة جديدة من القطن من لون أصفر وأبيض وأخضر فاتح. حذائي الجديد كان أبيض دون كعب. صرتُ وكأنني أمشي على بيضٍ أخاف أن أكسره أو كأنني أنتعل حذاء عَايْشَة ازميدَة، الفتاة اليتيمة الفقيرة التي فقدت فردة حذائها في قصر الأمير، فخرج هائماً بحبّها يبحث عنها إلى أن عثر عليها وتزوّجها. عشتُ مع الحذاء فرحاً وعذاباً لخوفي من أن يتّسخ أو يتمزق، من حين إلى آخر أمرر عليه يدي وأمسَح ما علقَ به من غبار.

بقصر الشيخ انطلق الذكر الجماعي بتهليلات ومواويل من أصوات طروبة لمسمعين يتناوبون على إنشاد قولٍ جميل لم أكُن أعرف معناه، لكن له سلطة على نفوس السامعين والسامعات حتى أن عيون الكثيرين كانت تدمع خشوعاً وهم يردِّدون طرباً الله... الله...

حينما ينطلق أفراد الجوقة في العزف على العود والكمان كنت

أنتشي مع الألحان. عمتي تحني رأسها وتضع يديها على عينيها، وهي تردِّد مع المسمعين بصوت خافت. صدحات الأنغام أنستني حزني ورطبت ضنى نفسي.

يتفنن الشريف في ترديد المواويل بصوت جميل والحاضرون مأخوذون ببهاء صوته. ما يتغنى به له سلطة على الحاضرين. صارت مواويله إنشاداً خفيف الإيقاع محفّزاً على الرقص. رجل الدولة المريض قابعٌ في محفّة بأفرشة من حرير بجانب الشيخ يهزّ رأسه. علت ضربات إيقاع الطبل ونهض الفقراء في شطح وترديد الأذكار خلف شيخهم بخشوع. تبعتهم النساء. غابت العيون وهامت الأرواح. أخذَ بي الإيقاع والوَجْدُ وصرت أحاكي ما تفعله النسوة في حلقتهن التي تفصلها عن الرجال شجرة كبيرة سامقة من الكرز. اشتد الإيقاع واندفع إلى وسط الفناء رجلان يرقصان، يرتفعان وينزلان بقوة.

أخرجَ مريد أفعى سوداء. رفعت النسوة رؤوسهن مبهورات. انحنيتُ على عمتي خائفة وأنا أقول لها:

الأفعى السوداء...

أجابتني قبل أن أتمِّم كلامي:

الكافرة التي تفزعنا في البحيرة السوداء... والتي يقول عنها فقيه قريتنا إنها التي ساعدت إبليس ليُوَسْوِس لأبينا آدم وأمنا حواء حتى أُخرِجا من الجنة.

وكأن المريد صاحب الأسمال المرقّعة والشعر المسترسل في فوضى سمع عمتي، رفع الأفعى، أدخلَ رأسها في فمه، وعضّ عليه حتى فصَلَه عن جسدها قبل أن يرمي به. كادَ أن يغشى عليّ.

هلَّل الحاضرون. سألتني عمتي إنْ كان الرجل قد مزَّق الأفعى.
تنهدت فرحة:

- الله يعطيه الصحة... تستأهل بنت الحرام... بعمله هذا ينتقم لنا ممّا تسببه الأفاعي في حياتنا من رهاب، ولما ستسبّبه لنا من رعب في قبورنا كما يقول إمام المسجد.

بعدما رمى الرجل رأس الأفعى هاج الحاضرون والحاضرات لحظتها رقصاً وردحاً خلف الإيقاع الذي علت وتيرته بشدة. اقتربوا من الشيخ وهم يردّدون قولاً منظوماً:

سيدي قَاعْدْ في امْكَانُو	سَعْدَاتْكُمْ يا خُدّامُو
يا الطّايْعينْ لكَلامُو	يا الرَاكْعينْ تحْت قْدَامُو

سيدي قاعد في مكانه يا لسعادة خدمه
الطائعين لكلامه الراكعين تحت أقدامه.

انطلق الجميع مردِّداً وانطلق الشكّارة يهيم مع الإيقاع. جسمه السمين العريض يكاد يمزّق عباءته الواسعة ووجهه المكتنز يقطر عرقاً وهو يشطح في هياج يميناً وشمالاً ويقترب جهة النساء. اقترب مني وعيناه مغمضتان قبل أن يفتحهما عليّ، مدَّ يده نحوي وحاول أن يجرني نحوه. ارتعبت. شدَّني قبَّلني بين عيني. كدتُ أن أصرخ قبل أن يصرخ هو:

- أيتها السارقة... أيتها السارقة...

- إنك سارقة... لقد سرقت...

اهتزّ قلبي هلعاً. كيف له أن يعرف أنني سرقت برتقال بستان شيخه. إنهم أهل الله وأهل الذكر وهم يعرفون كلّ ما يغيب عنا. كدتُ أن أتهاوى من هلعي.

هربت ممّا أنا فيه أجول بعيني بحثاً عن أمي. رمقتُ طيور البط تبطبط وتبحلق فيَّ بنظرات قوية. لقد جاءت تشهد على ما اقترفته يداي في حقّ حديقة شيخها. استنجدتُ بعمتي. كانت تخوض في حديث مع امرأة وهي غير مبالية بفزعي.

تراجعتُ إلى الخلف وعاد الرجل وهو يرقص صعوداً ونزولاً، يُدير عينيه نحوي باحثاً عني. لحق بي من جديد، دهَس حذائي بقدمه الكبيرة المفلطحة، آلمني ونطق في تلعثم:

أنت سرقتِ... سرقت قلبي...

قبل أن يقول لي:

اقتربي... لرتق قلبي المكلوم.

ثم صرخ جهة الشريف القابع وسط المسمعين:

- زوِّج مريدك يا شيخي. زوِّجني بهذه السارقة التي خطفت قلبي.

انفلتّ من يده وجريت مرعوبة. انتشلتني جارتنا ميمونة وجرَّتني خلفها.

انفضَّت حلقة الشطح وانزويتُ قرب عمتي. هدأت الجلبة في انتظار تقديم العشاء. ألححتُ على عمّتي أن نغادر إلى بيتنا، قبل أن تحضر زبيدة المشرفة على تنظيم أحوال الشيخ لتختلي بي وبعمَّتي وهي تبتسم وتُخبرنا أن الشْكَارة الكهل المريد، والفقير المحبَّب إلى

شيخنا، وصاحب أملاك عديدة بالمدينة يؤكِّد أنني حورية سرقت قلبه. خاطبتني:

أيتها العفرية سرقتِ روح رجلٍ مسكين ذي قلب هشّ. سيتقدّم لخطبتك بمباركة شيخنا.

بدا التبرّم على عمَّتي وأمرتني بالانصراف قبل أن نتناول العشاء. بحثنا عن أمي بين النساء. أخبرتها عمتي بما حدث غاضبة وهي تسبّ الرجل الكهل وتنعت لحيته التي لم ترها بلحية التيس وتقسم على أن تنزع لحيتيه الاثنتين لو التقت به. ابتسمت أمي:

- لقد كبرت ابنتي حتى صار الرجال يتقدمون لخطبتها.

ثم صارت الابتسامة مغمورة بأسى واضح على عينيها وهي توجِّه لعمتي كلاماً يغممه صوت الحزن:

- لقد بدأت البنت تكبُر وما يزيد من ألمي أنني لم أفِ بوعدي بإدخالها إلى المدرسة.

رفضت أمي تزويجي ومنعتني من الذهاب إلى منزل حيون، الذي طالَ وجوده هذه المرة في قريتنا شهوراً آملاً أن يشفى رجل الدولة المشلول. كما منعتني من مرافقة صبايا القرية لمشاهدة موكب رحيل الرجل عن القرية محمّلاً بغلال أراضيه، وبما قدَّمه له القرويون من هدايا وبهائم يرافقه رجل المخزن في هودج. لم نعرف إنْ كان الرجل قد شفي من مرضه أم لا. لكن عبد الستار حارس الضيعة أكَّد للقرويين أن المريض تعافى تماماً.

كانت رحلة الشيخ إيذاناً ببدء رحلة نساء قريتنا إلى بركة الأفاعي السوداء.

عند اقتراب موسم حصاد البردي ينشغل أهل القرية وخاصة النساء بالحديث عن أفاعي البركة السوداء. يُقال إن هذه الأفاعي السوداء والشديدة السمّ، عكس الأفاعي الأخرى لا تلدُ بيضاً وتفقسها، بل تلد صغارها مباشرة من بطنها، فتنزل تجري وتسعى في الأرض لرزقها وللانتقام من بني آدم، ومنذ القدم والحيات تمنع أهل القرى من جَني أوراق البردي بالبركة وتفتك بكلّ مَن يقضّ مضجعها.

تؤكد خدوجة المرأة المسنّة التي تقود النساء الحاصدات أيام حصاد البردي، أنها سمعت من جدّة لها التي سمعت هي الأخرى عن جداتها أنّ بين الأفاعي والإنسان قرابة ما تحوّلت لأسباب مجهولة إلى عداوة، وأنّ الثعابين التي تستوطن البركة وجنباتها منذ الأزل، لها وصية يجهل أصلها للفتك بالإنسان وإرعابه. وأنّ هذا العَداء القائم بين بني آدم وبني حنش قديم يمتدّ إلى غابر الأزمان.

قالت لي عمّتي قبل أن تنطلق في الحكي عن علاقتنا بالأفاعي السوداء:

يا سبحان الله كيف كُتِبَ علينا أن ننزع طرفاً من رزقنا من

بين براثِن سمّها.

مَن كانوا قبلنا ظلوا محرومين من أوراق بردي البركة لعدة أزمنة رغم حاجتهم الملحّة لها لتسقيف البيوت، وصنع الحصر والمطارح، إلى أنْ مَنّ الله عليهم جزاء شدّة صبرهم وتقبّلهم لقدَرِهِم ببَركة حيون «الشّيْخْ الكَامِلْ النيّة والقَاهِرْ لِلْحَيّة» الجدّ الأول لشيخ قريتنا.

رغم أنّ رجلنا عاش في زمن غابرٍ لا يتذكّره أجدادنا ولا أجداد أجدادنا، وغابَ منذ زمن لا يدركون بُعْدَهُ في الزمن، إلّا أنه يُحكى لنا بتفاصيل دقيقة عن أوصافه وكراماته وقدراته.

الشّيْخْ الكَامْلْ كان قد أتاه الله جمالاً خلّاباً، وعينين سوداوين سالبتين. حتى إنّ أهل قريتنا يؤكّدون أنه كان يُعرف بصاحب عيون الغزال سالب عقول نساء الرجال. ممّا دفع معلِّمه الصوفي الزاهد إلى أمره بأن لا يغتسل إلّا ليلاً درءاً للفتنة. كما قيل إنه طلب منه أن يرتدي نقاباً على وجهه ليستر جماله الفاحش عن البشر.

أجدادنا في القرية لا يعرفون أصل الرجل الذي وصل إلى ديارهم ذات ليلة باردة كان القمر فيها غائباً، والسماء صخرة من غمام أسود، يطلب زهد وعلم فقيه مسجد قريتهم. يزعمون أنه اختار عمداً تلك الليلة حتى لا يفاجئ بهاؤه نساءهم وفتياتهم وحتى الذكور من أبنائهم. وخوفاً على أنفسهم من أنفسهم اجتمع رجال القرية وارتأوا طرد الرجل بالحُسْنَى خارج ديارهم. لكن أمام ورعه سرعان ما تخلوا عن هواجسهم وصاروا يسمحون لنسائهم بالاقتراب منه، بل والتطلّع والتأمل في عينيه خلال بداية فترة حملهن لعلهن يتوحمن على جماله فيرزقن أبناء بمثل بهائه وفتنته.

حتى يتطهّر الرجل من أدران الدنيا لم يكن يتخلى عن الاستحمام والوضوء في غدير القرية ولو كان الفصل شتاء. كان يغتسل ليلاً ليقطع الطريق على كلّ مَن تسول له نفسه، أو تسول لها نفسها، التلصّص من بين أحراش الغابة على عريه الساحر الأخاذ بالألباب. فمَن تلصَّص على الشيخ الكامل سيُصبح مسكوناً بقوة خفيّة من جماله السحري تجعله يرغب في أن يجد الدنيا ينبوعاً للجمال الباهر وأمام حلمه المستحيل ستصبح الحياة بالنسبة له بؤرة قُبح وصدأ، فيسقط في فخّ الضيق من العيش وهو مرض فتاك والعياذ بالله يؤدي إلى هلاك مريع للممسوس به. تتابع عمّتي.

والرجل يتعبّد داخل مسجد القرية عمّت الدنيا برودة لم يُعرف لها من قبل مثيل. حتى إن أهل القرية قاطعوا صلاة الجماعة وظلّ الفقيه ومريده مقيمين لوحدهما في المسجد.

ذات ليلة قمراء تجمَّد قمرها وهواؤها من البرد، وعجن الصقيع سواد ليلها، وهجعت فيها كلّ دواب الله على الأرض في مراقدها باكراً، واضطرّ أهل القرية ممّن لا يملكون غطاء رادعاً للسعات البرد إلى الرقاد بين بهائمهم، وأشعلوا كوانين النار ليواجهوا الزمهرير، خرج الرجل يواجه البرد بدفء من قلبه، متوجهاً إلى الغدير ليتطهّر من أمراض الحياة وأهوائها وأنوائها، ويتوضأ كعادته لاستقبال فجر يومه نقياً صافياً.

وهو يغتسل عارياً تَحجبه أسوار البرد والدجى، مدّ يده ليغترف من ماء الغدير الجامد والأسود. انسلَّت هي بهدوء من قلب

ظلام الماء وواجَهَته. كانت تقطر سواداً لكنه سواد ليس كالسواد، ليس كسواد الليل، سواد يلمع ويبرق. الرجل الذي ارتجف بشدّة ممّا رأى وأحسّ بخوف يكاد يكون ملموساً عادت له طمأنينة حذرة حين استعاذ بالله.

اعتلت صفحة الماء. كانت عيناها قاطعتين سالبتين. اختلّ ورع الرجل حين صارت تقترب منه في غنج مثير. فكَّر في أن يهرب أو يفسح لها الطريق لتنزلق على الماء وتحمل معها دلالها وتهتُّكها اللذين دوخاه وأَسَراه. لكن سحرها سمَّره مكانه وأوقَد فيه أحاسيس غريبة لم يتذوّقها من قبل. لذّة استمتاع قصوى بالتطلع إلى إثارة تَرُج مخفيات النفس ملفوفة بخوف رهيب. شرع يلعَن الغواية الشيطانية التي تجسَّدت في هذه المخلوقة ونفسه تُعانده وتردد اللهم أدمها من غواية.

اقتربت منه أكثر، فحيحها يغيّب صوت اندلاق ماء الغدير وما يوشوش به الظلام وما توشوش به أصوات مخلوقات الله الساهرة في الليل. همَّ الرجل بأن يهرب من المخلوقة الناصع سوادها لكن ساقيه كانتا مسمّرتين قلب ماء الغدير. عزم أن يصرخ فخرج صوته كخرير الماء، وحدها يده اليمنى استطاع تحريكها، اغترف ماء ورشه بقوة على الأفعى وهو ينادي على الله.

قطرات الماء تلك كانت مفتاح تحوّل الحية إلى أنثى... غادة... عذراء... فاتنة... تنفث أمواجاً من الضياء. صارت حسناء فاحشة الحسن والغواية قلب فقاعة هائلة من النور.

الدهشة الكبيرة قد تُفقد العقل. كاد الرجل أن يفقد صوابه ليس

خشية، بل دهشة من نور جمال انبعث من حوله. كانت زمردة حُسن لا تقاوم، جوهرة من الفتنة والإغراء.

اقتربت الفاتنة من وجهه يفوح منها عبير الطيب والمسك وعطر لا مثيل له على وجه الأرض. كانت تتضوع منها رائحة الحياة. طغت رائحتها على زوائح ماء البركة وأشجار الغابة وعلى قلب الرجل وربما على إيمانه. عيناها كانتا تتطلع إليه في اشتهاء لا تخفي زخاته ألوان الليل البارد.

تتابع عمتي... لو يكون الله رحيماً بي ويجعلني ألتقي بها ليشعّ عليّ نور جمالها ويعود لي بصري.

***

الرجل قاوم وأيقظَ قوة إيمانه وتقواه، وطلب من الله أن ينصره على بلواه هو الذي عاش طيلة عمره متنسكاً خشوعاً. استغاث بقوة تَدَيُّنِهِ صارخاً في وجهها:

- أعوذ بالله منك... من إشراقك أيتها الحية... الملعونة المرغوبة... ارحلي عني... ستقتلني قوة حضورك.

بصوتٍ ليس مثله صوت ردَّت عليه:

- اقترِب فأنا أهديك روح الحياة.

ارتجف وهو يردّ عليها: - ما أنتِ إلّا حية...

أجابته:

ما الحية إلّا حذفٌ لحَرف الألف من كلمة الحياة والألف هذا

هو ما ينغص ملذات الحياة. أقبِل إليّ أيها المستضعف تحيا وترتع في ملذاتي.

أمام مواصلة إغرائها الذي لا يقاوَم تضرَّع إليها:

ابتعدي عني إنني أخاف الله. مأواي جهنم إنْ أنا قربتك... إنني أخاف الله...

أضافَ ولظى الرغبة والرفض ينفث دخاناً في قلبه:

أعوذ بالله من شَرَكِك، ولو أنك تتلبسين صورة امرأة فاتنة فما أنتِ إلّا أفعى ساعدت إبليس على إغواء أبينا آدم وأمنا حواء لأكل التفاحة، فطُردا من الجنة وطوِّح بهما وبنا نحن الأحفاد في أرض الآثام.

قاطعته:

يا لبلادتكم، خطيئة صغرى كانت سببَ نزولكم إلى الأرض لتتمتعوا بملذاتها لكنكم أغبياء.

حدجته بنظرات ثاقبة وتابعت:

كان من الأجدى لكم أن تعيشوا الحياة كما تستحقّ أن تُعاش، لكنكم جاحدون وبلداء حين ظللتم تحملقون في صممِ وعَمى الجبال.

واصلَت إظهار ولهِها بمعشوقها. اقتربَت منه. راودته عن نفسه وهي تدعوه إلى مفاتنها.

اغربي عني. إغواؤك بابٌ يقود إلى جهنم.

أجابته بصوتٍ جدّ رخيم ومن دون اهتمام بتهرّبه:

- جهنم هي ما ينهش الآن دواخلي نحوك، إن لم تُخمدها مَن

لي يُخمدها في هذه الليلة التي تموت فيها هِمَم الرجال؟ فإما أن تطفئها وإمّا أن أطفئ وجودك من الدنيا.

حين نطقت عمّتي بجهنم أشارت إلى وسطها قبل أن تخاطبني: أنتِ أنثى ولا عيب في أن تعرفي ما تعرفه الإناث.

زُهدُ الرجل وترفّعه عن لذائذ الحياة دفعه لكي يرفض رغبتها. خاطبَها بأنه يفضِّل الموت على أن يعصي ربه ويُرمى به مع العصاة.

تشبَّث الرجل برفضه وقام بدفع العفريتة الفاتنة. تأكّدت الفاتنة من عفّته فزادَ افتتانها به وعشقها له بجنون. عَرْضُ نفسها عليه لم يكُن سوى امتحانٍ لمدى قوة إيمانه وزهده.

خاطَبَته بحنان:

إنني مؤمنة مثلكَ وما محاولتي لاستدراجك للخطيئة سوى اختبارٍ لك. إنني زوَّجتُك نفسي فاقبَلني زوجةً لك تغنم النعيم.

تشبَّثت الحسناء بحُب الشاب رغم ممانعة أهلها، فالحب كالإيمان كما يسكن الإنس يسكن الجن. رضخَ والدا الجنية لرغبة ابنتهما وأقاما لها حفلاً شهد عظمته أجدادنا، كانت الشمس ساطعة في لطف طيلة الأيام، وكان القمر منيراً بهياً طوال الليالي، وظلّت مياه الغدير تشتعل في الليل أنواراً شهراً كاملاً.

الحية الفاتنة كانت ابنة لمَلكين من ملوك الجن، الأب ملك على مملكة طير الجن ومنطقه، والأم ملكة على مملكة أفاعي الجن وشرّها. تزوجت الفاتنة بالشيخ الكامل وورّثَتْهُ سرّ وقوة وحكمة والديها. هكذا تمكَّن الرجل من منطق الطير ومن قدرة لجم الأفاعي.

من يومها أَذِنَ الشيخ الكامل لأهل قريتنا والقرى المجاورة بدخول البركة، وجَنْي أوراق البردي، شرطَ أن لا تدخل إليها إلّا النساء، وأن لا يدخلن إلّا حين يكون أهلها الأصليين -الأفاعي- نياماً، وأن لا يتكلّمن بصوت مرتفع، وأن لا يُزغردن ولا يصرخن حتى لا يزعجن أهلها. كما أنه عليهن ألّا يحصدن إلّا الأوراق الطويلة السامقة والناضجة من البردي، وأن يتحاشين الصغيرة منها، وأن يغادرن عند بزوغ الخيوط الأولى للفجر.

عرف الرجل بالشيخ حيون الكامل وعاش الزوجان حياة سعيدة ملؤها الحب والهيام إلى أن فرَّقهما الموت مُفرِّق الأحباب وهازم اللذات، تاركين خلفهما ذرية كان منها شيخ قريتنا الشريف حيون الذي ورث عن أجداده بَرَكَةَ لَجم أفاعي البركة بواسطة الطير، والذي ما زالت بَرَكَتُهُ تحرسنا حين نتوجّه لحصاد البردي في بركة الأفاعي السوداء.

كان لحكاية عمّتي سطوة كبيرة على أحلام يقظتي. أصبحتُ أحلم بأن أتحمَّم في غدير الحية ليمنّ عليّ الله بلقاء جنيّ يُغرم بي ويهديني قوة وبأساً، يمكّنني من الانتقام من العريبي، واللقاء بأبي، وتعلّم فكّ الحروف، وإرجاع بصر عمتي، وامتلاك حظيرة كبيرة من بقرات مرقّطة وعدداً كبيراً من الماعز، والرحيل إلى المدينة.

بحتُ لأمي بسرّي ورغبتي عسى أن أتملّك ما أحلم به. ألححتُ عليها في أن ترافقني إلى الغدير نهاراً وليس ليلاً.

نهَرَتني بلطف:

- معظم متمنياتنا تولد أحلاماً وتموت أحلاماً. نحن نحلم

لنتناسى قسوة الدنيا. لكن الحلم عادة يفوق طاقتنا، وعلينا أحياناً أن ندفن حلمنا هذا قبل أن يقتلنا.

حكَت لي كيف سَبَقني قديماً شباب من القرية بمثل حلمي. وطأوا الغدير في ليلة مسموم بردها، ولم يجنوا من حلمهم سوى الإصابة بمرض الصدر وتقيؤ الدم قبل موتهم.

ختمت أمي حكيها:

- قتلهم حلم الغنى دون كدّ وجهد.

وكأن أمي بقولها هذا كانت تهيئني للإيمان بأنه بالعمل والكدّ وحدهما نحقق أحلامنا.

أضافت في حسمٍ قَطَعَ عليَّ مواصلة أسئلتي:

كنت أحلم بأن نوفّر مبلغاً يمكّننا من الهجرة إلى المدينة فوجدتُ نفسي في مواجهة الحاجَةِ إلى دخلٍ يمكّننا من دَرء الجوع، وادّخار مؤنٍ للشتاء القادم. في فصل خريف السنة الفارطة لم نتوجّه لحصاد البردي لأنني كنت مريضة ومنهَكَة، كما أنني لم أذهب في هذا الصيف لعملية اللقاط تطيّراً ممّا حلّ بك في الموسم الفارط من مرض. علينا أن نستعدّ للتوجّه إلى بركة الأفاعي السوداء لحصاد البردي.

***

بدأنا الاستعداد مثل باقي نساء القرية لرحلاتنا الليلية نحو البرْكَة، ونحن مؤمنات أن بَرَكَةَ الشيخ ستحمينا وترافقنا، وأنَّ الطيور المكلَّفة بحمايتنا بأمرٍ منه قد جدَّدت معه العهد لتظلّ حامية لنا من

شرور الطريق، وما يسكن البركة السوداء من أفاعي.

كان علينا أن ننام باكراً وقت هجوع الدجاج والديوك في خممها أو على أغصان أشجار الأوكاليبتوس بفناء بيتنا. بعد نومٍ قصير مضطرب استيقظت على نداء أمي والليل ما زال باسطاً رداءه على الدنيا. أخلِّص عيني من غبش النوم، ونسرع إلى عملنا لأننا مرغمات على الانتهاء من العمل مع بزوغ الشمس، كما أنه علينا العودة قبل منتصف النهار لأخرج الماعز إلى الغابة.

تصرّ عمّتي أن ترافقنا متحدِّية عماها. لنختصر الطريق كان علينا أن نقطع «سالو»، خندق عميق بين صخور من حجر الفريش، تمتدّ على جوانبه أشجار كثيفة من العرعار والعليق والبلوط، تتشابك أغصانها مشكِّلَة سقفاً كثيفاً يخترقه ضوء القمر كخيوط رقيقة من نور باهت لا يفي بإضاءة الطريق. كلّ واحدة منّا تحمل منجلاً وقاطعة عشبٍ من حديد. كنا نحتاجهما للعمل، كما كنّا نفتح بهما المسالك التي يُغلقها تشابك فروع الأشجار ونحن نبسمل ونصيخ السمع لصوت الطيور. سماع شدو طيرٍ معناه أنه يعلم بتوجّهنا وأنه سيقوم بحراستنا في طريقنا ومن الأفاعي السوداء كما أمره الشيخ الكامل وحفيده الشريف.

بين الأشجار التي تحفّ بالخندق العميق عادة ما يكون الليل مسموماً بسِهامٍ من الخوف والبرد. بردٌ ساكنٌ في حنايا الريح، وخوف ساكن في حنايا أرواحنا ونحن نعبر المسلك للوصول إلى غدير الحية. هناك نلتقي بالنساء الأخريات اللواتي ينطلقن من التل الغربي للمدشر لنتشارك الطريق الطويلة بين الغابات والتلال للوصول

إلى بركة البردي.

قلب سَالُو لم تكن قوة بصرنا تختلف عن قوة بصر عمّتي إلّا قليلاً. رؤيتنا الموشّاة بالظلام والخوف كانت بالكاد تمكّننا من تفادي الحفر الكبيرة والحجارة الناتئة. جذور الأشجار وفروعها النابتة من تحت التراب والصخور تصير في عيني حوافر مشقوقة بوَبَر من الشَّعر الغزير لبهائم ووحوش الجن. أسوار الأشباح التي تُبنى أمامنا من شدّة الظلام ومن خوفنا كنا نخترقها ونحن نتمتم أدعية.

الطبع المرح لعمّتي لم يكن يفارقها حتى في «سالو» الأشباح هذا. فانبعاث خشخشة بين أغصان الشجر والعليق كثيراً ما جعل عمّتي تنزع ضحكات من شلالات الخوف وهي تقول:

يا سبحان الله كم من ضرّة نافعة. ينفعني عماي الآن. فعلى الأقل لن أشاهد ما سيُخيفني ولن أشاهد ما قد يفاجئنا من جنّ ووحوش.

لكن رغم محاولات إبداء الشجاعة كان يصيب عمّتي ويصيبنا رهاب الليل والتقزّز ممّا نسمعه، من عواء الذئاب ونعيق البوم وأصوات الحشرات والحيوانات. عمّتي كانت تلعن هذه المخلوقات لأنها تصرخ في الليل ولا تلجأ للنوم. ثم تقول وهي تسمّي الله إنّ بين هذه الأصوات وأصوات الشياطين تطابقاً كبيراً إنْ لم تكُن هي نفسها أصواتها.

عادت بنا عمّتي مرّة إلى قلقنا:

إنْ كانت الطيور تحمينا من الأفاعي فمَن يحمينا من الذئاب والخنازير البرية والضباع وقُطّاع الطريق؟

تجيب عن سؤالها مستهزئة:

لا أظنّ أنه هناك قطّاع طُرق يملكون الشجاعة لقَطع سالو بالليل.

يُحكى أن الشريف حيون لمّا طالبته القرويات بحماية أكبر، واجههم بأنّ الحماية من حيات البركة هو قادرٌ عليها، أمّا ما عدا ذلك فالحماية من عند الله.

نتنفس ارتياحاً عابراً، حين نصل إلى غدير الحية حيث علينا أن ننتظر بقية نساء القرية. الغدير موحِش بشكلٍ كبير بالليل حيث يتدفّق شلال ماء بين أشجار عملاقة كثيفة الأغصان، وطحالب اتّخذت من الصخور الملساء منبَتاً. مثلث أسود ينفث ماء يسوده ظلام الليل. تندلق المياه وشلالات من أشباح الأفاعي تجاهي. أحوِّل نظري عن المكان، لكن شيطان عيني يلحّ عليّ أن أعود بنظري إلى هناك. أتسمَّر من الخوف.

كَثُرَ توجّسي ليلة ادَّعت عمتي بعد أن استنشقت عطرها أنّ نوراً انبثق داخل عينيها ليُبصرها جنيات بلباس أبيض، وجسد شفاف يتوضأن في الغدير، وحياتٍ برأس إنسان ترقص حولهن قلب الماء. أمام صمتنا أنا وأمي واصلَت قولها إنّ الجنيات المؤمنات وعَدْنَها بأنها ستُبصر النور يوم تردِّد الجبال الصدى.

أمي ليلتها خانتها شجاعتها فأمرتنا بأن نترك الغدير ونُكمل سيرنا دون باقي النساء، ثم طلبت مني أن لا أنظر خلفي بتاتاً قبل أن تتمتم:

أين أنتِ أيتها الطيور الحارسة؟ أين شَدْوك ليريحنا ولو قليلاً من سطوة هذه العتمة؟

أطلقت صفيراً يُحاكي صوت الطيور للنداء عليها. قبل أن تعود

لتطمئننا بصوت رصين:

- لا خوف على مَن يذكر الله، لنذكر الله سراً وجهراً ونُواصل السير.

عاودَها قلقها فزفرت قائلة:

جبالنا لا تردّ الصدى فكيف بطيورنا أن تشدو وهي تعلم أنّ صدى شدوها لن يتردَّد!

منذ تلك الليلة لم نعُد ننتظر نساء القرية في الغدير، وكلّما وصلنا قبلهن إلّا ونغضّ البصر جهة الغدير، نسرع بخطواتنا ولا نلتف إلى الخلف. هرباً ممّا يتجاذبني، ألوح بعيني بعيداً بين تلافيف الظلام لعلّني أرمق أطياف النساء القاصدات البركة تسرع خلفنا، وأرهف سمعي لعلني أسمع أصوات أقدامهن تصفق في التراب، وأسترق سماع شدوِ طير ما ولو نعيقِ البوم الكريه، ليكون لي السبق في أن أخبر أمي وأُسعِدها.

كثيراً ما كانت النسوة يتوقفن لينتظرننا. ما تثيره عمتي من مرح بينهن هو السبب. منذ أن فقَدَت بصرها، صارَت تتعمّد إثارة الضحك بين النساء المشاركات لنا طريق البركة، ليعدلن عن الإسراع وعن تركنا لوحدنا عندما نلتقي بهن ونستأنس بوجودهن. نكمل السير متقاربات ونحن ملتحفات بمناديل تقي الرؤوس وتغلِّف الظهر. قليلات منا ينتعلن أحذية من البلاستيك الأسود والباقيات أقدامهن حافية. ندفئ رهبتنا بالكلام. نتهرب من التعب والخوف عبر كلام مَرح يرمي إلى خَلْقِ جوّ من الضحك. ترى عمتي أنّ الضحك منة من الله على مخلوقه الإنسان وهو قد كرَّمه به دون باقي المخلوقات

ليخفِّف من ضجره، فتنطلق في إطلاق نكات ومحكيات ملفَّقة عن أهل القرية والقرى المجاورة، التي كنّا نعتبر أنها العالم الوحيد الموجود في الدنيا.

تُخرج قارورة عطرها وتَستنشق منها، تشرع من جديد في مشاكسة النساء. تضاحكهن. تمازح هشومة وتقول لها إنها رغم عماها ما زالت قادرة أن ترى عجيزتها الكبيرة المكتنزة، وأن جسدها يعرج ثم يتريّث في انتظار أن تصل عجيزتها.

تواصل تهكّمها:

كيف يتركك زوجك القرواطي لوحل وبرد البحيرة وهو يغطّ في نوم عميق؟ لكنه ذكر كباقي ذكور القرية.

تهمهم:

شتان بين الرجال والذكور. فحتى الكلب ذكر.

هشومة تدعو عليها بقطع لسانها قبل أن تضحك. تتخذ المتسوقات من الضحك والتعليق على كلام عمّتي فرصة للاستراحة.

نضحك ملء أفواهنا، ونمتلئ بطاقةٍ من المرح تُعيُننا على مواجهة ما سنُقدِم عليه من أهوال في عملنا. يوم نهرت امرأة مرافِقَة لنا عمّتي بأن تربط لسانها وتكفّ عن جَلد الناس، ضحكت وهي تجيبها:

إن لم نتحدث عن أعراض الناس، هل سنتحدث عن أعراض البهائم؟

وكان أحسن انتصار على رهابنا هو انطلاقنا في غناء جماعي يحثّنا إيقاعه على الإسراع في خطونا. ولا يخلو عادة من أغنيتنا

المفضلة: «زمم ونا نودي هذا مكتوب ربي».

ما أن تنتهي عمّتي من غنائها حتى تدّعي وتؤكد بأنها تسمع شدواً خافتاً لطائر الحسون، وحين تواجهها النساء المرافقات بأنهن لم يسمعن شيئاً، تردّ في تأكيد بأنّ الله يهبُ العميان قدرة سمع أقوى من الآخرين، فيصمتن ويتظاهرن بتصديقها أو ربما يُؤمنن بقولها لتطمين أنفسهن.

***

بعد النزول من التلّ بمشي حثيث تتصيّد أعيننا دكّة مستديرة من السواد تمتد في الأفق البعيد. الدكة السوداء الفسيحة، هي ما يرسمه بلون الليل امتداد دغل من أوراق بردي كثيفة قلب البحيرة، التي تتراءى كحفرة من حُفَر جهنم. يُبكمنا المشهد. تَشرَع النساء في مدّ أياديهن إلى أحزمتهن الصوفية ليخرجن من بين ثناياها قطع خبز من الذرة السوداء وحبات من تين مجفّف يقضمنها بسرعة دون توقّف عن السير.

حين تبدأ أقدامنا تتخبّط في الماء والطين نعرف أننا وطأنا موطن الثعابين السوداء. في الليلة الأولى توقّفت فطومة وخاطبتني بكلامٍ يشي بأنها خائفة رغم محاولتها تغليفه بابتسامة:

مسكينة إنك صغيرة على هذا العمل.

قبل أن تضيف ما يفضح خوفها:

كنّا نتمنى لو تنضج أوراق البردي في فترة البيات الشتوي

للحيات، ولكن للأسف فإنها لا تنضج إلّا الآن، وبعد أن انقضت شهور صيام الحيات وأخاف أن تبدأ فطورها بنا.

أمام ما استشعرتُ من خوف سألت أمي:

- أيّ ذنب اقترفنا في حقّ الحيات حتى تهرشنا؟

لم يكُن من جواب عند أمي سوى أن تطلب مني أن أصمت وأستعدّ للدخول قبل أن تشجّعني:

لنحمد الله فمنذ زمن الشيخ حيون صارت للطيور سلطة كبيرة على الحيات. الطيور تستمدّ سلطتها من السماء أمّا الأفاعي فمن قلب الأرض، وكلّ ما يهديه لنا الله من سمائه هو أسمى وأقدس ممّا يأتينا من الأرض.

زَفَرَت وهي تواصل تشجيعي:

دعي عنك الأوهام، ما علينا إلّا أن نعتمد على شجاعتنا.

تبتسم وتنكسر البسمة بين أسنانها وشفتيها.

انبرت عمّتي تحدِّث النساء وقد خفّ قلقها:

ليس كلّ ما نسمعه مقدّساً. لا تصدقن كلّ ما تسمَعنه. الاعتماد على الله وعلى أنفسنا يصنع قوتنا.

غاب عني خوفي وأنا أتهيأ للدخول إلى البركة ومواجهة قَدَري في الليلة الأولى. بدواخلي تصدح أغاني والدي.

توقفنا قبالة أوراق البردي، تقدّمت خدوجة، ترحَّمت على الشيخ الكامل وقرأت تعاويذه وأدعية حفيده حيون حتى يُنزل الله على الأفاعي سباتاً من عنده.

شرعت النساء في الدخول إلى المستنقع. في البداية رفضتُ أن أنزع حذائي البلاستيكي، ولكنني حين نزلت إلى الماء المُثقل بالوحل، ووجدتُ أنه يثقل خطواتي عُدت ونزعته حتى لا يتمزّق وأظلّ حافية ربما لشهور إلى حين أن نتدبر ثمن شراء حذاء جديد. لكن دهس وحل البحيرة حافية والأفاعي ترقد داخله كان له عليَّ من الخوف ما لا يمكن وصفه.

تتقدم النساء داخل المستنقع الشاسع حيث تتعالى أغصان البردي الطويلة. يصلُ الماء إلى وسطهن. تختار أمي مكاناً مناسباً لعمّتي وتسلِّمها المنجل، وتطلب منها أن لا تغامر بالدخول حيث العمق أكبر. تحدِّد لي مكاني. أبدأ في قطع الأوراق الناضجة. يتجاوز الماء بطني ليصل إلى ما فوق نهدي ويغطي صدري. كان

عليَّ أن آخذ نفساً وأنحني قلب الماء لأصل إلى جذور الأغصان. أحزم ما قطعته من بردي وأربطه بحبل. أقتلع رجلي الغائصة في الماء المترب بثقل... كنت أغلّف يدي بقطعة كتان حتى لا تتقرَّح من ضغط قبضة المنجل.

أعمل بجد. أمي كانت دائماً تذكِّرني بأننا نساء من دون رجل في عهدتنا امرأة عمياء، ولهذا علينا العمل أكثر. أجهد لأحصد أكبر عدد ممكن من الأغصان الطازجة حتى أسعد لثنائها عليّ.

لم يمرّ يومي الأول من العمل دون هلع. وخز في ساقي قبل أن ينفذ الألم عميقاً. ما آلمني تشبّث بساقي لا يتزحزح رغم محاولتي نزعه بقدمي. استغثتُ بمَن حولي حين استحال عليّ فكّ ما علق بي. النساء القريبات مني شرعن يهربن من حولي. زاد فزعي.

الحيات بدأت التهامي من الساق. هرعَت أمي نحوي تتخبَّط في ماء ووحل البحيرة وتشقّ الطريق بيديها بين أوراق البردي. انتزعتني بقوة من قلب الماء وهي تنادي على امرأة كانت قريبة منا بأن تساعدها. رفعاني عالياً وأنا أصرخ بأنّ أفعى لدغت ساقي والتفَّت عليه. هدَّأتني أمي وهي تُخبرني أن ما بساقي هي عَلَقَة. نترت المرأة بشدّة العلقة المتشبِّثة بساقي كلصيقة، ظلَّ ألمٌ حادّ يعضّني. ذهب عني الخوف وعُدت إلى الحصاد ولو أنّ قرصة العلقة ظلّت تؤلمني.

لم أعلم لماذا لم تشمَل كرامات الشيخ حيون العَلَق. صرتُ أتجاهل طوال عملي بالبركة قرص العلقات والتصاقها بقدمي أو بيدي وأتحمّل ألمها كباقي النساء حتى ننتهي من الحصاد، ونخرج

من المستنقع. ساعتها تتكفل خَدّوجَة بوضع مسحوق التبغ على كلّ علقة تشبَّثت بالجلد والعروق، فتنكمش العلقة على نفسها قبل أن ترخي مقابضها وتسقط مكوَّرة على نفسها، لتترك الجلد معضوضاً ينزّ دماً. يكون الألم أقل بكثير ممّا لو تمّ نزعها دون الاستعانة بمسحوق التبغ وتكون ندوبها أخفّ. تحرص البنات الحاصدات للبردي على رش المسحوق على العلق فالرجال في قريتنا يفضِّلون الزواج بفتاة لا تحمل ساقاها ندوباً. ويستشهدن كيف طلق الكُميشَة زوجته عَلاَلَة بسبب ثقوب ساقيها وفخذيها حيث كان يقول عنها:

كنت أضاجع غربالاً وليس سيقان امرأة. أين ما وضعتُ يدي على فخذيها وجدتُ ثقوباً.

مع إطلالات بزوغ الشمس ننهي عملنا عملاً بالوصية. نحزم ما قطفنا من قصب البردي، نحمله على ظهورنا وهو يقطر ماء ووحلاً، ونشرع في العودة. ورغم أنّ أمي تنقص ممّا كوّمته في حزمتي وتزيده على حزمتها، كنت أصعد مقوّسة بخطوات متعثرة أجرّ رجلي من ثقل ما أحمل على ظهري وأنا مبلّلة من رأسي حتى قدمي. في الطريق نضطرّ لتوجيه عمّتي ومساعدتها، ممّا يجعلنا دائماً نتخلف عن موكب باقي النساء. كنا نصل مكدودات إلى البيت نأكل ما تيسر قبل أن أُخرج الماعز للرعي.

لكل موسم حصاد البردي ضحية. أحياناً تتخلف إحدى النساء عن الذهاب إلى البركة. لأنها وإن سلمت من الأفاعي لن تسلم ممّا نسميه الأذى الكبير للمستنقع. فحين تلجم الحيات وتعالج لسعات العلق يبقى المرض الكبير الذي لا علاج منه، إلّا الدعاء والتوجه

إلى فقيه القرية ليكتب تمائم تداوي وتحدّ من ضربات البحيرة التي تفتك بضحاياها في صمت. تأتي ضربة المرض الكبير بارتفاع شديدٍ للحرارة وحمى وقيء وإسهال وعدم القدرة على الحركة وآلام شديدة في الرأس. ولا تنجو المصابة من الموت إلّا إذا كان عمرها طويلاً.

سعياً لعدم التعرض للأذى الكبير، الذي لا يُبعده شدو الطير، كانت النساء تقوم بتقديم نذور إلى ضريح سيدي رشون ليأخذها طلبة الكتاب القرآني مقابل قراءة سور من القرآن لحماية صاحباتها من أذى البحيرة. في هذا الموسم كانت الباتول ضحية.

في الأسبوع الأخير ونحن نعتزم العودة بعدما أكملنا الحصاد، سقطت الباتول فجأة متشنجة حين اكتشفت أفعى سوداء راقدة تحت منديلها خارج البركة. انسلت الأفعى أمام اندهاشنا وخوفنا نحو الأحراش. لم يطُلْ مرض الباتول الذي أقعدها بيتها. بعد ثلاثة أيام فجعت القرية بخبر موتها.

خاطبتني عمتي حانقة بعد حضورنا جنازة المرأة:

ليس لنا ما نعوّل عليه في هذه الأرض، ليلة اعتلال المرحومة كنّا مطمئنات ومنتشيات لما سمعنا من شدوٍ للطيور.

أطرقت برأسها وتابعت:

الطيور التي نرتجي خيرها، تخوننا وتنهب حبوبنا وتنقر حبات الخضر والفواكه، ممّا يسبّب لسكان القرية مرض الطير الخطير.

واصلت مخاطبتي وهي تستنشق عطرها:

والأفاعي التي نرهبها ونكرهها بها نعالج ما تخلّفه سموم

الطيور على أجسادنا.

تَداول الفصول يؤكد ما يقوّض ثقتنا بالطيور ويدعم قول عمتي. فبعد أن يمرّ المطر الكاسح ونحن ندعو الله حتى لا تقتلع زخاته بذرات الفول التي زرعناها في عرصتنا الصغيرة. تشرع الطيور في مهاجمة ما أنبتت الأرض ولقّحت الأشجار.

بعد أن نحفر الأرض بالفأس، نغطّس الحبات بأصابعنا في التراب آملات أن تنمو وتزهر، وما إن تتخمر الحبات بالمطر وتشرع في دفع التراب عنها نسرع بصنع فزاعات من الأقمشة وورق البردي، ثم نعلّق عليها تمائم من أجل إبعاد الطيور عنها، لكنها لا تنفع فما إن تنبت البراعم حتى يأتي هجوم الغربان.

كنت أظلّ طيلة اليوم أندَه وأهشّ على الطيور السوداء بأغصان طويلة وهي تلعب لعبة الكرّ والفرّ، ولا تهتم بما أصدره من أصوات. بعيونها الصفراء الغارقة في السواد تنظر إليّ وتطير قبل أن تعود إلى وليمتها. كانت تملك قدرة عجيبة على نزع البرعم الصغير من جذعه لتبتلعه قبل أن تطير وتعود من جديد منتقية برعماً آخر. كنت ألوّح عليها كالمجنونة إلى أن تنهار قوّتي. يوم لم أفلح في صدّها رفعت صوتي منادية أمي وعمّتي لمساعدتي. حين وصلتا وجدتا تراباً منفوشاً وجذور البراعم وسحباً من الغربان ووابلاً من نعيقها يثقب الأذن. عمّتي أغلقت أذنيها بيديها ورفعت رأسها نحو السماء وصوتها حتى أسمعها:

- يا سبحان الله، الجنون لا يلبس البشر فقط، حتى الطيور تجنّ، ولو لم تكن مجنونة لما حلّت تبحث عن ما تأكله في قرانا

التي لا يجد أهلها ما يأكلونه.

تهيب بي عمتي أن آخذَ بيدها وأشاركها الإسراع لصدّ الهجوم. كنّا نعتبر الغربان طيور الموت. ندعو الله أن يتوقف برعم الفول في حنجرتها لا ينزل ولا يخرج حتى تختنق.

ترحل الغربان ليس هروباً من صراخنا، بل حين تداهمها أصوات أشدّ إزعاجاً لها ولنا، آتية من أمواج سوداء في السماء تهرهر بصوت لا تردِّد صداه الجبال فيتفرقع فوق رؤوس أهل القرية.

سحب نقط سوداء تتمدّد، تجتمع، تتشتت، تتراقص، تحجب عنّا سحب السماء وتصدر أصواتاً مُقلقة ترتطم برأسي حتى أنني ألمّ منديلي عليه لأخفف من شدّة ضجيجها. طيور سوداء صغيرة الحجم مندفعة بعين لا تخطئ كلّ نبتة بالكاد برعمت.

لا يفلح رجال ونساء وأطفال القرية في وقف زخات المناقر على ما أوشك أن ينضج من خضروات وفواكه وحبوب، بصياحهم وفزاعاتهم ودخان النيران التي يشعلونها لتخويف وتبديد سحب الطير. لقد كانت الطيور تلتهم كلّ ما زرعناه ثم تعود تُمطره برازاً على رؤوسنا وعلى رأس قريتنا.

والمساء يفرج عن سواده البارد جلست أمي وقالت:

لم يعُد لنا من حياة هنا. حتى هذه الطيور ما شاهدتُ يوماً مثل نهمها.

تلعن عمّتي حيون وتتهمه بالعجز والقصور قبل أن تضيف:

لا سلطة لحيون ولا لجدّه على الطير ما دامت كراماته لا تستطيع أن تُنقذنا من بلاء الغربان والطير الزرزور. لا سلطة له

سوى ما أعطيناه نحن. قدرنا نواجهه لوحدنا ووحده الله يساعدنا.

يرحل طير الزرزور ليحضر من خلف الجبال طير بونَقُوبْ. طير بمنقار طويل حادّ ينقر حبات أشجار الفواكه بالقرية حين تثمر، رغم أنّ كلّ شجرة تعلو فروعها فزاعة. أهالي القرية كانوا يؤمنون أنّ طيور بونقوب هي سبب التقرحات والدمامل التي تصيب الجلد في فصل الصيف. حتى أنهم كانوا يطلقون عليها مرض الطير.

نحن الأطفال كنا نتغاضى عمّا يُشاع عن الحبات المنقوبة التي تسبب أمراضاً مستعصية. حين يستبدّ بنا الجوع نتسابق لقطفها إن وجدناها رغم ما بها من ثقوب وعفن.

كره عمتي لطيور بونقوب لم يكن يمنعها من أن تأمرني أن أقودها إلى عبد الستار حارس حديقة الشيخ لتطلب منه بعض الفواكه المثقوبة حين تغرغر بطنها جوعاً. كانت تمرِّر يدها بعناية على تعفنات الفاكهة لتنزعها من الجذور قبل أن تتناولها.

لقد كانت ترى أنه لو مرضنا فسم الأفاعي موجود. الشرّ لا يواجه إلّا بشرٍّ أقوى منه. والشرّ الآتي من الطيور التي تطير في السماء نواجهه بشرٍّ من باطن الأرض، وهكذا نعيش توازن الحياة بين الأرض والسماء!

في قريتنا تصبح الثعابين رمز الشرّ الكامن في باطن الأرض، دواء لداء أتانا من طيور السماء، وتصبح رؤوس الحيات غير المنتمية للبركة وسمّها ولحمها دواء للعديد من أمراضنا، التي نرى أنّ سببها منقار الطير.

الأصلع بُوحَنْشَة هو من تكلَّف بهذه المهمة. كنا نحن أطفال

القرية نشارك الأصلع وأهل المريض البحث عن حيّة من غير نسل حيات البركة، وبحسب اعتقادنا فكلّ الحيات بقريتنا وغاباتها وتلالها لا تنتمي إلى نسل حيات البركة.

يغرينا الرجل بقطعة نقود صفراء ثمناً لكلّ أفعى، فيطير خوفنا من الأفاعي ونذهب للبحث عنها بين جحورها في غابات وتلال القرية. حين نعثر على حية ما نحيط بها ونهشم رأسها بالحجر والأعواد قبل أن نحملها إلى بوحنشة وكلّ واحد منا يردِّد في توكيد لطمأنة نفسه:

إنها ليست من نسل حيات البركة.

كان الرجل يشوي الأفعى في النار ويدقّها قبل أن ينثر رمادها على الدمامل والقروح وهو يكرِّر تمائمه. كانت له طريقته الخاصة في معرفة نسل الحية. إذا ما تعافى المريض تكون الحية من غير نسل حيات البركة، وإذا لم يشفَ يكون تفسيره هو وأهل القرية أنّ نسل الحية له جذور بعيدة مع نسل حيات البركة.

حصاد البردي كان يدوم ما يقارب شهراً. مع إطلالة سحب فصل الخريف نشرع في تهيئة البردي لصنع الحصر. الأوراق الأكثر سمكاً ننتقيها لتسقيف البيوت والزرائب. في هذه الفترة يحتاج القرويون إلى أوراق البردي لإعادة تسقيف بيوتهم، كما يحتاجون إلى حصر جديدة تَقيهم البرودة المشتعلة من أرض بيوتهم.

يدوم عملنا أياماً قبل أن نحمل ما صنعناه على ظهورنا ونتوجّه إلى سوق الخميس.

تركنا الماعز لعمتي التي ستُرافقها ابنة جارتنا ميمونة لرعيها. خرجنا قبل إطلالة الفجر، حتى نتمكن من الوصول باكراً إلى السوق والعودة قبل انتشار الليل. مرَرْنا قرب الدجاجات والديكة التي لم تُعلن بعد تباشير الصباح، كانت تنقنق في مراقدها منزعجة من عبورنا.

في باحة القرية نلتقي بالنساء اللائي سيُرافقننا. تسمي ارحيمو الله وينطلق موكبنا. علينا أن نقطع مرتفعات ومنحدرات جبلين قبل أن ننحدر إلى سوق الخميس حيث نعرض ما صنعناه للبيع.

ونحن نصعد بين الصخور كانت أشعة كامدة تنساب وتنسكب

على بيوت قريتنا. مجموعة من قرود زعطوط تراقبنا وتتبعنا عن بُعد. النساء لا يُرهِبْنَها. قالت ارحيمو إنها طائفة من أبناء عمومتنا مسَخَها الله، قبل أن تواصل إنها هجرت السفوح وقصدت الجبال خوفاً من أفاعي البركة. إنها تخاف من الأفاعي أكثر من الإنسان.

يعمّ الصمت حين نرتقي مسالك صعبة بين الصخور. كنا نحافظ على أنفاسنا.

في منحدرٍ ضيّق عادَ إليّ خوفي من الأماكن المرتفعة. ما يُصيب أنفسنا لا يبتعد عنّا بسرعة والتخلص منه صعب.

- إذا ابتُلي الإنسان بوسواس ما كان الله في عونه.

من بين الأقوال التي حفظتها عن أبي ولم تبرَح ذاكرتي.

نصحتني أمي:

- لا تمدّي نظرك إلّا لمسافة قريبة من قدميك، كلّ نساء القرية عانَين في بداية توجّههن إلى السوق ما تُعانيه فلا داعي لأن تبالغي وتهزمي نفسك.

أحني رأسي ولا أسمح لعيني بأن ترى أبعد من قدمي. نسير ببطء شديد. نثقل خطواتنا ونقترب من بعضنا أكثر بينما تتقدّمنا ارحيمو الخبيرة بقَطع تلك المسالك، تقود الموكب.

كلَّت أرجلنا وظهورنا. يمتلئ رأسي بريح الجبل، وبضجيج تعبي. لماذا غادرتنا يا أبي؟ لماذا؟

رقية من حومة المراغة بدت منزعجة وغاضبة حين خاطبت ارحيمو:

ألا توجد طريق أخرى نسلكها إلّا هذه الطريق؟

أجابتها ارحيمو بما لم يلطف انزعاجها:

يصعُب تغيير طريق رسَمَتها أرجل مَن سبقونا... حتى ولو رغبنا يصعب ذلك علينا. الطريق موروثة وواجب اتّباعها كما قال أجدادنا. ونحن لا نعرف لماذا.

استأنفت:

- ربما لقلّة حيلتهم وغبائهم لم يجدوا أفضل منها فورثوها لنا عنوة. كأننا نعبر هذه الطريق التي فرضت علينا لنتطهّر من ذنب ما اقترفناه. أيّ ذنوب اقترفناها؟

علقت رقية مستهزئة:

- قد نقترفها في المستقبل... وربما اقترفها أجدادنا.

أنفاسي تلهث. أتمنى أن نصل بسرعة ليرتاح جسدي من ألم الحمل الثقيل، ألم يثنيني عن التفكير في خوفي وضجيجي.

في السوق افترشنا مكاناً، نعرض الحصائر.

يا فتّاح يا رزّاق يا مدبِّر الأرزاق...

أكرِّر خلف أمي. أقرأ ما أحفظه من آيات القرآن وأدعو الله أن يفتح علينا، ويُقنع المتسوقين بأن يشتروا منّا سِلَعنا.

بعنا سِلَعَنا كلها. كنت مسرورة من فرح أمي. أثناء عودتنا كانت الريح قد تحركت لتُبعد غلالات من الضباب كانت تُعيق تسرعنا. كنّا نسرع حتى لا تباغتنا رياح قوية. رغم إطلالة حلول الظلام كان النزول أهون. عُدنا إلى بيتنا مكدودتين محمَّلتين بسكر وزيت ومناديل وأحذية من البلاستيك وبعض الملابس الصوفية البالية.

في البيت رجونا من الله أن لا تتحرك زوبعة ما إلى أن نتمكّن من إعادة تثبيت سقف بيتنا، وسقف نوالة المطبخ ببردي جديد تستطيع أوراقه مقاومة عواصف فصل الشتاء.

تُصَيح الرياح في علياء السماء. لم تحمل معها هذه المرة سوى أصوات هديرها. لا صدى لصوت والدي. كبار السن من أهل القرية يؤكّدون أنها لا تصرخ بهذه الشدّة إلّا لتُعلن أنها تعبِّد الطريق لفصل شتاء قاسٍ علينا وعلى قريتنا. وقتها فقط ردّدت الجبال الصماء صدى زمجرتها، فارتسم على وجوه القرويين انزعاج غامض تعبيراً عن خوفهم من فصل مَطير أشدّ من السنوات الفائتة.

السماء المغلَّفة بغسق أحمر قانٍ دوَّت منها فرقعة. فجأة نادى دويّ الرعد على الريح. فهبَّت على التلّ حيث يقبع بيتنا متسارعة غاضبة. عمتي ترى أنّ الرياح تعشق التل عشقاً متيّماً حتى أنها نادراً ما تهجره. فحين تهبّ على القرية تخصّ كديتنا بهجمات أقوى. في ذلك الصباح بدأت هبّاتها دوائر تراقص معها الغبار وأوراق الأشجار والسحب.

ترفع أمي عينيها إلى سقف بيتنا المصنوع من أوراق البردي، وتحدِّثني عن رغبة أبي قبل اختفائه بتسقيفه بألواح من الزنك، لأنه أكثر حماية لنا في فصل الشتاء، لكن إصرارها بأن نرحل إلى المدينة جعلته يتخلى عن الفكرة. تتأسّف قبل أن تضيف لكنه هو الذي رحل

إلى حيث الله وحده يعلم.

كنّا قد استعدَدنا لأيام المطر، فقد قمنا بتبليط حيطان البيت بالجير والتراب، وأغلقنا ما اعتراها من شقوق من فرط حرارة فصل الصيف التي تترك آثارها على الحيطان، مثلما تتركه على جلدنا. سقف البيت رصَصْناه بأوراق بردي جديدة وشدَدْنا أعمدته الخشبية بما فتلناه من حبال.

السماء صخرة رصاصية اللون شرعت تنثر رياحاً تشتد مع تحوّل لون السماء إلى سواد خفيف. عمَّتي رأت بأنّ غروب ذاك اليوم كان ثقيلاً على قلبها. سوادٌ قاتم كسا ملامحها حين كسَت السماء غيوم تعلن عن اقتراب ليلٍ هائج غاضب. رياح كأنها ألسنة غير مرئية لوحوش خرافية بدأت تتراقص حول الحجر والشجر، كَبُرَت وصارت تلاعب الأشجار في لفّ ودوران حولها، قبل أن تبدأ تعوي وتجري خلف بعضها وكأنها جُنّت.

اهتزّ سقف بيتنا بغتة. قالت عمتي وهي تقرأ اللطيف وتغلق أذنيها بيديها:

- كأن سعاراً ألمّ بهذه الرياح لترغد وتزبد بهذه الحدّة.

فتحت الباب لأعبر إلى زريبة الماعز وأتأكّد من أن بابها المثبت بالحبال والأعواد مقفول جيداً. كانت الريح تضرب خبط عشواء وتهاجمني. وقفت تحت واقية باب البيت مأخوذة أتابع رقصاتها قبل أن أعود إلى الداخل.

نادَت الريح على أبناء عشيرتها من قمم الجبال فلبّت نداءها نازلة لتساندها وهي تعوي وتنقضّ على البيوت المتناثرة بين تلال

المدشر، وتلطم الكدية حيث يقبع بيتنا بقوة. ارتفاع الكدية يجعلها سبّاقة لتلقي الضربات. كانت اللطمات مزلزلة وعنيفة.

اشتدّ غرور العاصفة عندما اقترب نور السماء الأخير المتواري خلف سديم السواد من المغيب كليّاً. صار سقف بيتنا يهتزّ بقوة وكأنّ أيادي ضخمة تزحزحه وتنزعه من فوق رؤوسنا. جلسنا طيلة الليل نذكر الله ونلتمس ألطافه تحت رحمة الزوبعة.

في الصباح عادت تطلق عواء. أحزمة أوراق البردي المشدودة إلى الركائز الأفقية بحبال تنفلت وتنفسخ وكأنّ يداً ما تستلّها حزمة حزمة. خافت أمي من أن يخلع السقف. هرعت لتحضر حبالاً نشدّ ونعضد بها ركائز السقف المهتزة فوق رؤوسنا. مرَّرَت حبلاً على سارية من جذع شجرة الصفصاف التي تمتدّ أفقية في سقف بيتنا لتعضده وخرجت لتلفه على جذع شجرة الأوكاليبتوس التي تعلو فناء بيتنا. الريح وكأنها ترغب في أن تنزع عنها ملابسها. وأمي تتشبّث بالحبل طار منديلها الصوفي الذي تلحِّف به ظهرها. قبضت يد عمتي وخرجنا لمساعدتها.

بداخل البيت بدأنا نغرس بمدّقات وأحجار أوتاداً، وندقّ عليها بشدة. ترمي أمي حبلاً على سارية من سواري السقف، ثم نشدّه إلى الوتد في الأرض. جهد أراقَ منّا العرق والسقف ما زال يتزحزح.

جلسنا تَعِبات نعلِّق أعيننا إلى السقف خائفات من أن يتعرّى بيتنا. ارتمت أمي إلى الخارج وراحت تنادي من رأس التل وتستنجد بأهل القرية. لم يحضر أحد. الريح كأنها أشفقت على حالنا فهدأت

من سعارها ودعتنا ننعم بقليل من الهدوء.

في الغد ذاع خبر ترجرج سقف بيتنا فحضر يحيا النسا بين الرياح العاتية التي كادت تطوح به من على الكدية. حضوره شجَّعنا على القيام بإعادة شدّ الحبال وتثبيت السقف من جديد. عمل أنهيناه بحلول الليل. ففتحت عمّتي وصلة ذكر وجلسنا نردِّد خلفها وسرعان ما أخذ بي النوم على أصوات ذكر حنونة ومطمئنة من أهوال العاصفة.

لم تغب العاصفة قبل أن تترك وصيتها لزخات مطر قوية صارت تنكبّ كدِلاء ماء. خاطبتنا أمي التي بدا عليها جزع كبير:

عاصفة بكلّ هذا الغضب لا تهدأ إلّا بعد أن تترك ضحايا.

لم يتوقف المطر في اليوم الموالي. ظلَّت أمي طيلة النهار قلقة تغدو وتروح بين البيت وفنائه. بقدر ما يسارع الظلام بالانهمار بقدر ما كانت ترتسم على قسمات وجهها رسائل همّ لاسع.

حلَّ الليل. الفنار ينوس. نارُ فتيلته تتهادى خافتة فتُضيء وجه أمي. وجهٌ مشطور بين لون النار واللون الأسود. عيناها قلقتان تتفحصّان الظلام. بعثت الريح شياطينها فتسرَّبت إلى داخل الفنار وأطفأت شعلته. تمدَّدتُ على الحصيرة قرب أمي. صوت المطر يمنعني من النوم.

بعد ثلاثة أيام من سقوط متواصلٍ للمطر. استيقظتُ على نداء أمي. رغبة تشدّني في المكوث على الحصير متدثِّرة بلحاف ثقيل من الصوف. من شقوق نافذة البيت كانت السماء كتل صوف رمادية متراصّة على مرمى عيني. طلبت مني أمي أن أتوضّأ وأصلي بجانبها:

بالصلاة نتجرّع الكثير من جرعات الصبر ونتحمَّل ما نحياه.

حلّ انشراح في صدري غسل ارتعابي ممّا قد نقدِم عليه في هذا الجو الغاضب. وضعت أمي قطع خبز وحبات زيتون داخل الجراب. عمدت مرفعاً خشبياً وأخرجت منديلين كبيرين من البلاستيك. لفَّت بقطعة منها رأسي وربطت ما تدلّى منها على ظهري بحبل رقيق، قبل أن أساعدها في ربط القطعة الأخرى على رأسها وحول ظهرها. حملت حبالاً طويلة وبتارة حديدية. سكَنَ الريح ولم يتوقف المطر. أمرَتني أمي أن نسرع لعلّ الله يساعدنا للوصول إلى بقراتنا وإنقاذها قبل هلاكها.

خطواتنا المسرعَة كانت تقودنا في اتجاه وادي الزهور. الوادي الخفيض بين الجبلين المرتفعين حيث قادَ أبي بقراتنا قبل اختفائه وأطلَقَها هناك. توقَّف المطر وأشرقت الشمس خجولة، لكن الضوء لم ينفذ بعد بوضوح من سحب الصباح.

تحمل الرياح الباردة الأولى لأهل القرية الاحتراس من الأيام القادمة. فيبدأون بإعداد التحصينات وتوفير المأكل والكلأ. ويُصبح الحفاظ على حياة البهائم عالة عليهم حين يندر العشب ويشحّ الكلأ. فتبدأ رحلة ترحيل البقر والبغال إلى وادي الزهور بين قمم الجبال، حيث لا ينقطع المرعى في ذاك السهل المعشوشب الفسيح الذي تنتشر فيه برك ماء صغيرة، قبل أن يُعيدوها في فصل الصيف. تستثنى الماعز مخافة عليها من قسوة الطبيعة في الجبل العالي ومن قسوة كائناته وخاصة الذئاب.

كنا نحن الأطفال نشارك آباءنا الطريق إلى منبع رَأْسْ المَاءْ عند ترحيل البهائم إلى الوادي، وهناك نُودِعُها والحزن من فراقها

يقضمنا. كان فقيه القرية يحضر ليدعو الله، والأهالي يكرِّرون خلفه، أن تعود إليهم مواشيهم سليمة بعد ذهاب غول الشتاء. ما أن ينتهي الفقيه من دعواته وتنطلق البهائم ضاربة حوافرها في حجر الجبل الأبيض حتى تتقدّم المرأة الأكبر سناً في القرية بدلق دلو ماء وتخاطب البهائم:

لتذهبوا وتعودوا كما يذهب ماء النهر ويعود.

تمرّ على قريتنا شهور الشتاء والربيع وأهالي القرى يدعون الله أن تمرّ على بهائمهم دفئاً وسلاماً. في فصل الصيف يرتقي الرجال والنساء الجبال، محمّلين بالحبال للوصول إلى الوادي الخصيب وينادون على بهائمهم. عادة لم تكُن تستعمل تلك الحبال فما إن تتعرّف البهائم على أصحابها حتى تُذعن لنداءاتهم فيعودون بها إلى مرابضها. نادراً ما كانت تتمنّع وتحرن بهيمة ما وتتوه بين أودية الجبال أو تنفر من أصحابها فتصبح جاهلة كما كان يطلق عليها، حينئذٍ يضطر أصحابها لاصطيادها بالرصاص وذبحها هناك.

يترك بعض أهالي القرية بهائمهم هناك لسنة وأكثر فالعشب والماء لا ينقطعان عن الوادي. ذلك ما كنا قد فعلناه في ذلك الصيف حين غاب أبي، ومرضت أمي، وشغلنا الجري اليومي خلفَ ما نقتات به عن إحضار بقراتنا.

طلبت مني أمي أن أوسع خطوات سيري وهي تدعو الله أن يمكِّننا من إنقاذ بقراتنا. أمام توالي دعاء أمي وتوسّلاتها ركبني خوف غامض، رغم أني لم أكن أعرف ما الذي يتهدَّد حياة بهائمنا. صرتُ أقاوم وأسرع حين أتخيَّل أنّ بقراتنا في حاجة إلى مساعدة منّا، وأن

العِجْلَة نقوطة والتي ستكون قد كبرت قد يحدِق بها خطر ما إنْ تأخّرنا.

سلكنا طريقاً مختَصَرَة للوصول سريعاً إلى الوادي، وتجنَّبنا المسالك الهادرة بماء المطر. أقدامنا تتشبّث بالأرض المُوحلة بين الصخور وبالأحجار الزلقة المغسولة بالماء. نصعد ونحن نتشبّث بالصخور وجذوع الأشجار القصيرة وأغصانها.

الطقطقات المتواصلة لحبّات المطر، وانكسار هبات الريح على المناديل البلاستيكية لا يُتيحا لي سماع صوت أمي بوضوح حين تحثّني على مواصلة السير.

أشرفنا على قمة الجبل الذي يطلّ على السهل... نتنفّس بتعب. اتّكأنا على صخرة. ناولتني أمي قطعة خبز. هي لم تأكل. كنت أفتح فمي للمطر وأنا ألوك الخبز حتى يبتل ويسهل مضغه.

شرعنا في الهبوط. ما توهّمته هبوطاً سهلاً لم يكن كذلك. كانت أمي تنزل حَذِرَة وكثيراً ما تضطر للانزلاق قلب الوحل، شرعت أنزلق خلفها، حصى تؤلم خاصرتي والطين المبلّل يعتلي نصفي الأسفل. منديلي الصوفي وسروالي يقطران ماء وكذلك جسدي.

أطلَلْنا على فجّ حيث يمتدّ فوق اخضرار التلال لون رمادي كثّ منثور من السماء، ونحن نقترب اشتدّ الضباب وكأنه يُخبرنا أنّ هلاكاً ما في انتظارنا. كان الضباب المتضمّخ بالماء يعيق الرؤية والسير ويلتهم الجبال والحشائش القريبة منّا والبرك الصغيرة ويلتهمنا معها.. قدماي داخل نعلي البلاستيكي تفعصان الماء والضباب والأرض المعشوشبة. نبات الديس يصلُ إلى ركبتي.

تعبنا. ضوء واهن.

في انتظار أن يتكسَّر الضباب ويُطلق سراحنا تكوَّمنا قرب جذع شجرة بلوط وحيدة نتّقي المطر. أحذيتنا البلاستيكية التي جلسنا عليها تغوص بنا في الوحل.

مسحت أمي الماء بيديها عن وجهها، وجه يصبغه لون المطر، وغلاف من حزن قاتم. حدَّثتني ضَجِرَة:

وحده الرحيل إلى المدينة سيخلِّصنا ممّا نحن فيه.

بدأ الضباب الذي يغشى الأرض كدخان كثّ ينمحي وتتّضح الرؤية شيئاً ما. تتبدى أشعة الشمس حزماً من نور غائم. غير بعيدٍ تلُوح لأعيننا برك ماء متناثرة. ضباب يقبض على تلابيبها. مع ذلك الانفراج قمنا نسير.

تنهّدت أمي وهي تتوجّه إليّ:

أتمنى أن نجد بقراتنا ونُعيدها إلى البيت.

لم يَطُل سيرنا حين انقشع ما يشبه دخاناً خفيفاً عن بقرة سمينة تمدَّدت على ظهرها وقوائمها مرتفعة نحو السماء. سادَتني رعشة مقرونة بغثيانٍ حين تأكّدت عيناي من أنّ ما أراه هو جثة منتفخة لبقرة. غير بعيدٍ عنها بقرة أخرى منتفخة يغرق نصفها في الماء والوحل وهي منقلبة على جنبها. ثور نافقٌ منكبّ قلب الطين اللزج الأسود لم يعُد يظهر منه سوى رأسه. حصان مستلقٍ بعينين جاحظتين وفكّين متباعدين.

أمامنا بدأت خيوط من الشمس تنبعث، كأنابيب رقيقة من شعاع بألوان مختلفة، تنخر الرطوبة التي تحيط بنا فينفتح لنا طريق واضح

للرؤية، لرؤية بهائم أخرى نافقة قلب برك صغيرة من ماء موحل. بدا لي ما أراه غريباً كحلم عجيب رهيب.

شدَّت أمي على يدي وهي تبكي. ما صُعِقت به لم يُسعفني في البكاء ساعتها. غاصَت أقدامنا في الوحل ونحن نقترب من جثّتي بقرة وعجل صغير. صاحت أمي:

يا رب... بقرتنا الشهباء وعجلها.

بين أدغال صغيرة من نبات الديس تمدَّدَت بقرتنا الشهباء كأنها نائمة وقد تدلّى رأسها على جثة صغيرها. لم يكن لدينا وقتٌ كافٍ للتأسي على بقرتنا وعجلها فقد تمدَّدت غير بعيد عنهما بقرتنا قروعة.

رمت أمي منديلها من رأسها وراحت تنوح وترثي كلّ بهيمة باسمها، تعُدُّ محاسنها، تحكي كيف أننا كنّا نعوّل عليها، وكيف أنها تركتنا دون معيل بعدما تركنا الأب، ومن سيكون بنا بعد نفوقها. تشتكي حالنا إلى الله.

نواحٌ يقطع القلب. كنت أتساءل عن معنى ما تقوله أمي. وكيف أنّ الله الذي نُحبه يصيبنا بمصائب لا قُدرة لنا على تحمّلها، وكيف أننا بعد هذا الفقدان قد غرقنا في مستنقع الحياة وأنه لم يعُد لنا من خلاص.

ثورٌ نجا من طوفان الماء وقف يجترّ غير بعيد عنّا ويتطلع بعيداً دون اكتراث. عجل يزفر وينفخ دخاناً ويخور خواراً بأسى غير مفهوم. التفتَت أمي إليه وهي ترفع وتيرة بكائها وتخاطبه:

حتى أنت تبكي أيها الحبيب. مَن لا يبكي الآن لا قلبَ له.

من هول ما أعيش وتضامناً مع أمي وَحَال البهائم وحالنا رفعتُ

صوتي باكية. لم تسْكتْني أمي ساعتها. بدأنا نقتلع أرجلنا من الوحل لنغادر ونحن نعاين البهائم الضحايا. جلسنا نستريح دون أن تستريح عيون أمي من ذرف الدموع. رغمَ حزني انشغلتُ بالتحديق في وجه أمي، لم أرَ يوماً وجهها بمثل ذلك الغم. خيوط الماء والدمع والوحل أتلَفَت نضارته وبياضه الجميل.

ارتفع جهتنا خوار أليم وانخطفَ بصري نحو عينين تحدِّقان فينا من بركة وحلٍ غير بعيدة. كانت العينان لبقرة تستنجد بنا وهي تخور وتلحَس رأس عجل صغير انغرس نصفه في الوحل. كانت البقرة رابضة حول صغيرها تلعق وجهه بلسانها تحنو عليه وتحتكّ به وتتألم لحاله.

خاطبتني أمي وهي تمسح عينيها من الدمع:

لنحاول إنقاذه. حياة البهيمة كحياة الإنسان، إنها عزيزة على الله.

اقتربَت أمي من العجل محاوِلَة سَحبه. رمَت حبلاً حول عنقه. لم يفلح جرّنا ونحن نخاف أن يخنقه الحبل في إخراج قوائمه ونصفه التحتي من قلب الطمي. باء جهدنا بالفشل. كنت أرتعد، يسحق جسمي الصغير ماء المطر والعرق الذي يتصبَّب مني. انفجرت أمي غاضبة وهي تطلب مني أن أبذل جهداً أكبر. اقتربنا من العجل لكننا تراجعنا حين بدأت أرجلنا تغرق في الطين الكثيف. لم نفلح في إخراجه من المستنقع.

لاحَ ذئبان فوق تلٍّ قريب ينفضان الماء عن ظهريهما، ويحدِّقان فينا وفي العجل بهدوء وسكينة. بين الخوف والغضب شرعنا نهشّ

عليهما بالحجارة وما لحقته أيدينا من أعواد جرفتها السيول إلى السهل الذي أضحى مستنقعات. لم تنفع محاولاتنا بصدّهما.

حملت أمي القاطعة الحديدية وهرولت في اتجاههما وهي تصرخ عليهما بالابتعاد. صعدت التل وأنا خلفها. اقتربت من الذئبين وهي تلوح بالبتارة فابتعدا أمتاراً قليلة ووقفا ينظران إلينا غير آبهين بصرخاتها وتهديداتها. تيقّنت أمي من فشل مهمّتها فعادت وهي تسبّ الحيوانين وتتأسى على العجل الصغير. قالت لي غضبى:

سيعودان لمهاجمة العجل الساقط في شرك الوحل. أبناء الحرام كم من جثث لدواب نافقة مرمية أمامهما لكنهما لن يستحليا سوى افتراس العجل الصغير الذي ما زال حياً. كأنهما من أبناء البشر يتلذّذان بالفتك بالضحية... تفو... خبثهما يشبه خبث البشر.

لم يكُن بمقدورنا البقاء لحراسة العجل من الذئاب. كان علينا أن نواصل بحثنا عن بقرتنا مسعودة المفقودة وعجلتها نقوطة وأن نواصل النداء عليهما باسمهما بين صخور الجبل التي لا ترجع صدى نداءاتنا.

***

أحملق في أمي، كأنّ الخبل حَضَرَها ضربة واحدة فأضحَت مجنونة تائهة لا تعرف أين تضرب بتيهها. تتمشى تنادي على بقرتنا ثم تتوقف. ثم تعود لتصيح من بعيد على الذئبين اللذين مكثا واقفين على التلّ مراقِبَين للعجل وتلعنهما.

واصلنا المشي. رمَت بنظرها بعيداً مسَحَت ما علق بوجهها من وحل وماء وصاحت:

انظري ها هي عجلتنا نقوطة.

كانت عجلتنا الجميلة المرقطة بالأبيض والبني الفاتح والأسود تحدِّق في اتجاهنا. قفزت أمي نحوها وهي تلوح لي أن أتبعها. رفضت العجلة الاقتراب منا. نفَرَت هاربة. خَطَوْنا بحزمٍ نحوها. زادت ابتعاداً. جَرَينا. ابتعدَت عنّا وعادت تحدِّق فينا.

حاولنا الاقتراب منها من جديد. راحت أمي تناديها. أمام صمت العجلة وعدم استئناسها بنا، انطلقت أمي تشرح لها لماذا تركناها ترحل إلى الجبل. حكَت لها عن فقرنا وعوزنا وانعدام الكلأ في فصل الشتاء. وعن نفوق بقراتنا رفيقاتها. ثم قالت لها إننا إناث وحيدات، ورجلنا الوحيد أبي، ربما قتله العريبي أو هجرنا مع عشيقته، وحُلمنا بأن نرحل إلى المدينة قد تبخَّر.

ترجَّتها كأنها تخاطب إنساناً أن تغفر لنا قسوتنا، فما قسوتنا عليها إلّا من قسوة الدنيا علينا. جلسَت قبالتها بعيداً وبدأت تنوح. سَرَدَت أسماء بقراتنا النافقة وراحت تعتذر لأرواحها وتتوسَّل إليها أن تصفح لنا تهجيرنا لها إلى ما خلف الجبال، وتخلِّينا عنها، وأن تتفهَّم علَّتنا وحالتنا، وسبب تأخّرنا لإعادتها إلى بيتنا.

تحت المطر كانت العجلة تحدِّق فينا وتحكّ عنقها في صخرة. يئست أمي من اقترابها فهيّأت حبلاً واقتربت منها في تؤدة في محاولة للَجْمِها من عنقها أو من رأسها. حرنت العجلة وفرَّت بعيداً ووقفت على ربوة من عشب تتطلع إلينا بحذر وتحني رأسها في لامبالاة.

شرعتُ أناديها في دلال كما كنت أدلِّلها وهي صغيرة. تذكّرت فرحتي الكبيرة يوم ولادتها وهي تخرج من جوف أمها بألوانها المرقطة، وأمي تقطع غشاء الولادة. تمنَّيتُ لو أقترب منها وأربت على ظهرها وأمسِّد شعر جلدها كما كنتُ أفعل معها وهي صغيرة تكبُر قربنا.

نتناسى زخات المطر وننزع أقدامنا من الوحل ونواصل محاولة اللحاق بها وتطويقها. تخطو العجلة بخطو غير مسرعٍ كأنها تغرينا باللحاق بها، وكلما اقتربنا منها تهرول مبتعدة. قالت لي أمي إنّ العجلة هلعة ومصدومة ممّا وقع لأهلها من البهائم وقليلٌ من صبرنا سيجعلها تطمئنّ لنا وتتوقف.

انتصفَ النهار وشغلنا الجري خلف نقوطة عن ألم فقدان البقرات الأخرى، وازدادت العجلة تعنّتاً وكأن شيطان الجبال سكَنَها فأصبحَت تعبث بصبرنا وإصرارنا وتتسلى بتعبنا.

لا العجلة توقفت ولا المطر، ولا نحن توقفنا عن تتبّعها واللفّ حولها إلى أن قبضت أمي على يدي وجرتني خلفها بعنف لنتّجه خلف صخرة كبيرة وهي تأمرني بأن أقطَع حسي. كلّ حسي.

غير بعيدٍ عنا لاحت لي أطياف رجال يعبرون. كانوا يحملون أكياساً كبيرة على ظهورهم ويحملون في أياديهم سواطير وبنادق.

همَسَت لي أمي مرعوبة:

- إنهم مجموعة من المهرِّبين ولم يخرجوا في هذا الجو الماطر إلّا لأنهم يحملون سلعاً خطرة قد يعرِّضوننا لسوءٍ إنْ رأونا.

حاولت أمي أن نصل إلى صخرة كبيرة حيث توجد فجوة

يمكننا أن نحتمي بها، لكنها تراجعت بسرعة حين رأت أنّ الخطوات المسرعة للمهرّبين تقصد الاتجاه نفسه.

قبعنا خلف الصخرة الكبيرة وظللنا خائفتين منكمشتين ببعضنا حين لاذَ الرجال بمدخل كهف الصخرة. مدَّت أمي يدها بسرعة ونزعت عني المنديل البلاستيكي وأمرتني أن أطويه وأجلس عليه. كذلك فعلَت بمنديلها. همست لي بأنّ طقطقة حبات المطر على البلاستيك تُحدِث صوتاً سيسمعه أولئك الرجال فيتنبَّهون لوجودنا. لم يعُد هناك أثرٌ لعِجْلَتنا ولم نعُد نحتمي بالمطر إلّا بلباس مبلَّل جعل جسدينا كأنهما منقوعان في الماء.

أنزَلَ الرجال أثقالهم. أشعلوا ناراً وعلا صوت المذياع وصوت زفير وشهيق أمي. ظلَلنا في وضعنا وقتاً طويلاً حتى أظلم المكان.

اشتدّ إحساسي بالبرودة فدثَّرَنا الليل بظلامه. أمَرَتني أمي بأن أخبّئ الإزار البلاستيكي تحت ملابسي حتى لا يُسمع صوت نقر المطر عليه. فعَلَت هي مثلي، قبل أن نتسلَّل من الخلف بخطوات حيوان النمس ملتحفتين بحجب السواد. ابتعدنا نلتمس طريقاً بين الظلام إلى قريتنا.

كنت أرتعش من البرد والهلع. قالت لي أمي وهي تحاول أن تتغلب على ارتعاشها:

- لقد تخلَّت السماء عن سحبها التي كانت تمنع بعض البرد عنّا وها هو البرد ينزل كسفود والأرض تفرش لنا الصقيع.

لم أتوقّف عن الارتعاش إلّا عند عودتنا إلى بيتنا والليل قد أدلج. شرعت عمّتي تبكي من فرح عودتنا وهي تحاول أن تجفِّف

جسدينا. أشعلنا نار الكانون وراحت تصبِّرنا وتقدِّم لنا خبزاً مشوياً وشاياً ساخنين.

هدأت أمي قليلاً:

- يا الله كيف تبخر حلم الرحيل مرة أخرى. كنت أعتزم بيع البقرات لتوفير مال للرحيل. لم نعد نملك ما نبيعه. الماعز وصغارها لن يفي ثمنها بالغرض إذا ما قمنا ببيَعها.

تدخَّلت عمَّتي لتخفّف عنّا:

سنرحل من نَحْس القرية وستلج زهرة المدرسة، كثيرون مثلنا رحلوا وهم لا يملكون شيئاً.

جفا أمي النوم. رفضَت أن تتمدَّد على الفراش، عادَت عمتي تأمرها:

سلِّمي روحك إلى الله وسلِّمي جسدك إلى روحك. دعي الجسد يرتاح فترتاح براحته روحك. فرحمة ربي موجودة.

سلَّمتُ جسدي إلى روحي كما أمرَت عمتي ونِمت، فرحمة الله موجودة.

أكثر من خمسة أشهر كانت قد مرَّت على هروب نقوطة حين حضرَ قرويّ يُخبرنا أنّ عِجْلَة شبيهة بعجلتنا المفقودة قد قُبِضَ عليها في قرية الكوفة، وسُلِّمَتْ إلى قَوام القرية، وأنه شاهدها بنفسه محتجزة هناك. وهو يكرِّر علينا أوصافها بدقّة تأكّدنا من أنها عجلتنا. عرفنا أنها محتجزة في زريبة القوام منذ عدّة أيام ولتخليصها علينا أن نؤدي ثمن احتجازها.

من أعراف أهل مداشر الجبل أن مَن يقبض على بهيمة أفسَدَت زرعه أو أرضه يسلمها للأمين على الحجز بالقرية، وعلى صاحبها أن يؤدي تعويضاً للمتضرِّر، وقيمة ما التهمته البهيمة من كلأ وعشب خلال فترة احتجازها لدى الأمين.

أصرَّت عمتي أن تشاركنا الطريق وإحضار العجلة لكن أمي منعتها :

- طريق قرية الكوفة تملأه الأحجار والخنادق الضيقة، سأبحث عمَّن يُرافقنا وإن لم أجد سأذهب أنا وزهرة.

خاطبتني أمي:

- يحيا النسا لا يردّ طلباً كهذا، لكنني أخاف من أن تتداولني

ألسن أهل القرية بأنني قطعتُ غابات وتلالاً برفقة طفلة صغيرة ورجلٍ من غير محارمي.

بين الفرح وانتظار انطلاقنا اهتديت إلى النوم. في الصباح مع الشروق أيقظتني أمي متجهِّمة وقلق طاغٍ على قسمات وجهها. تناولتُ ما قدَّمَته لي من فطور على عَجَلٍ قبل أن تطلب مني أن أؤدي معها صلاة الصبح. قالت لي:

سِحْر الصلاة يمحو كلّ هَوْل.

فكأنّ حالتها انفرجت وخفّ قلقها الذي كان قد انعكس طاغياً عليّ.

لم نكن نملك مبلغ تخليص نقوطة فحملنا ما كنّا نحسبه ادخاراً لعوائد الزمن، جرّة سمن وبصلاً ودجاجتين لم أعرف كيف تمكّنت عمتي رغم عماها من القبض عليهما.

أمي التي رأت أن ما سنحمله غير كافٍ للتعويض حاولت القبض على ديك فنهرتها عمتي:

دعي الديك يؤنس الدجاجات المتبقّية ويؤنسنا. على الأقل يكون بيننا ذكر حتى ولو كان ديكاً.

ونحن نطأ باب البيت وعمّتي تودعنا حلّت نعيمة حاملة معها سلة بيض. قالت إنها سترافقنا لاسترجاع العِجْلة. تهلّل وجه أمي. انزاحت غمة قلقها. عانقت نعيمة ودَعَت لها. عرفنا أن عمّتي هي مَن ذهبت إليها تتوسّل إليها أن ترافقنا.

الطريق ملتوٍ بين تلال الغابة تحدّها جبال من صخور بيضاء شاهقة. قيظ الشمس مشتعل والدجاجتان تلهثان. أمي التي ربطت

جرة السمن بعناية على ظهرها كانت تسير حَذِرَة مخافة السقوط.

قارَبَ النهار من الانتصاف حين لاحت من بعيد أكواخٌ مسقفة بالزنك وأخرى بالبردي. استقبلنا نهيق حمار عندما شارفنا على القرية وامرأة تحمل حزمة كبيرة من حشائش شائكة تغطي جسدها من الخلف بالكامل. رفعت ظهرها الذي تقوَّس ممّا تحمله لتتطلّع باستغراب إلى هؤلاء الغريبات القادمات من بعيد تحت لسعات الهجير. سألتنا عن وجهتنا وهي تُبدي أسفها على حالنا وتقول إنّ مَن يقطع كلّ تلك المسافة من قريتنا لن يكون سوى ملسوعٍ من عضة الحياة. دلتنا على بيت القوام. على كدية مرتفعة بين أشجار مثمرة يقبع المنزل مطلّاً على باقي مساكن القرية.

يختلف البيت عن باقي بيوت القرية المسقفة بالبردي المجفف، سقفه مغطى بألواح لامعة من الزنك تبدو كمرايا كبيرة. تحيط به حظيرة كبيرة مسيَّجة بأعواد قصب يابسة مكَّنتنا من رؤية نقوطة مربوطة قرب جذع شجرة. كانت قد كَبُرَت.

قفزت أمي نحوها وارتمت تُعانقها بعدما أنزلت قلّة السمن من على ظهرها، قبل أن يُباغت سَمْعَنَا صوتٌ قويّ لصرير باب يفتحه رجل بِشَعر ولحية غير مرتّبين وشفة سفلى نصفها مبتور.

نَهَرَ الرجل أمي لأنها لم تَستأذن في الاقتراب من بهيمة لم تَعُد بهيمتها. رَجَتْه أمي بالسماح لنا بأخذ عجلتنا فهي ما تبقى لنا من بعد الطوفان. استرحَمَتْه. ودون أن يظهر أيّ اكتراث، قالت له إنها زوجة الزمار الكحيلة الذي يغني للجبال الصماء، قبل أن تواصل إننا نساء دون رجل وإنّ زوجها لم تعُد تعلم عنه شيئاً منذ ليلة اختفائه.

لم يُعِرْ الرجل اهتماماً لقول أمي ولا لاستجدائها، اقترَبَ منّا وطالَبَ بثمن حَجْز البقرة الشابة كما وصفها وثمن إطعامها والاعتناء بها، وكذا ثمن تعويض صاحب حقل ادَّعى أنّ الدابة فتكت بمزروعاته قبل أن يتمّ القبض عليها.

كان ثمن التعويض أكبر بكثير ممّا حملناه. لم تشفع قيمة جرة السمن وسلة البيض والبصل والدجاجتان التي اقترحتها أمي على القوام، ولا استعطافاتها.

أمام إصرار أمي وتوسّلاتها خاطبها الرجل:

المرأة دائماً تحمل معها قيمة ما تود الحصول عليه، خاصة إذا كانت جميلة مثلك.

راز أمي بنظراتٍ ثاقبة غاوية وقال لها:

- لن يأخذ ذلك منك الكثير من الوقت، نحن الاثنين سنستفيد وسنستمتع، خاصة وأنكِ امرأة وحيدة مثلي منذ زمن.

أمي متمنِّعة من لمز الرجل شرَعَت تتوسّل إليه، وتستحضر اسم أبيه وجدّه اللذين ادَّعت أنهما من أهل جود وكرم وحرص على الدين، وأن وجهه يوحي بأنه ابن أصيل لهما، لعلّها تُثنيه عن غيّه.

بانَ أنّ الرجل لم يتأثّر بكلام أمي حين رفع من صوته:

ما طلَبته منك من صميم الجود والكرم، تكرميني وأكرمك. ألستِ امرأة دون زوج ومقطوعة مثلي؟!

ردَّت عليه أمي ببكاء صامتٍ قبل أن تبدي خيبتها غير المتوقّعة منه.

في غضبٍ تقدَّمت نعيمة. مدَّت يدها إليه وهي تصرخ في وجهه:

- هذه زوجة رجل سيعود من غيبته، وحالتها ليست كحالتي فأنا قطعتُ رجائي من أمثالك. هيا أثبِت لي رجولتك.

سحبتني أمي خلفها. احتمَينا من وهجِ الشمس تحت شجرة صفصاف. تأخَّرت نعيمة التي أدخلت الرجل إلى بيته وهي تجرّه بيديها دون أن ينطق. أحنَت أمي رأسها بين رجليها. طال انتظارنا. تملَّكني شعور غامض. كنت حزينة من حزن أمي. طاحونة من الشرود. قبل أن تخرج نعيمة غاضبة ووجهها تحيط به هالة من التقزّز. لم تكُن تبكي ولم تكن مرعوبة، لكن شيئاً ما مغايراً غريباً كان يرتسم على وجهها.

كلَّمت أمي بين الانفعال والأمر:

افسخي حبل العجلة وهيا بنا.

هرعت لفسخ الحبل وقامت أمي لتقرِّب جرّة السمن وما حملناه لباب بيت القوام. باعدتها نعيمة وهي تقول:

هات تلك الأشياء. ليأكل السم.

دمعت عينا أمي، مَسَحَت دموعها وهي تربت بيدها على نقوطة. حين أدرتُ رأسي لباب القوام كان الرجل واقفاً يلف سيجارة. بانت لي شفته المقطوعة منفِّرة.

أكاد أطير من الفرح ونحن نجرّ العجلة محيطات بها وهي تسايرنا مطواعة. أربت على ظهرها، أحني عليها أشمّ رائحتها وأقبّلها. قلت لأمي بفرح لقد كبُرَت وقريباً ستصبح بقرة.

لم نَكَد نجرّ العجلة قليلاً حتى خاطَبَت نعيمة أمي التي كسا غمّ ملامح وجهها:

لا تهتمي لما وقع...

ثم واصلت:

كل معصيةَ كان أصلها الكفر لا يغفر لصاحبها، وكلّ معصية كان أصلها شهوة أو احتياج يصفح الله عن صاحبها. فليغفر لي الله، أما بُوشْقّة فليُشوى في جهنم إلى أبد الآبدين.

تمتمت أميٰ بدعاء كثيراً ما كانت تردده:

اللهم إنك عفوٌ تحبّ العفو فاعفُ عنا... اللهم اغفر لنا، إنك تعلم أننا أتينا الدنيا طاهرات نقيات فلا تجعلنا نستقبلك ممتلئات بالخطايا.

خاطبتنا نعيمة:

والله لو كان عجلاً ما تعبت خلفه وما استحقّ مني كلّ هذا العناء. العجل يبقى عجلاً يأكل ليكبُر ثم يُذبح، أما العجلة فهي مسكينة مثل المرأة تحبل وتلدُ من يخلفها في الدنيا وتعطي الحليب.

تضحك وتتابع:

والله لو لم يكن العجل يصلح لتوليد البقرة لما كان يجوز تركه يصعد فوقها.

تنظر إلى أمي ضاحكة:

أم ندعه يطلع... لأنها تكون في حاجة لذلك؟

تبتسم أمي وتضحك بخجل:

توقَّفي يا نعيمة... أرجوكِ فالصبية تسمع.

على تخوم غابة قريتنا مالت الشمس للمغيب بألوان حمراء وبرتقالية تجذُبها قوّة ما نحو البحر الذي أعرف أنه يكمن خلف

التلال، مع أنني لم أره يوماً عن قرب. الشمس تكاد تغرق وتلال الغابة تمتدّ أمام أعيننا كحواجز يلزمنا قطعها للعودة إلى بيتنا.

كنّا نحاول قطع التلال بسرعة حين توقفت نقوطة وخارت خواراً قوياً كخوار الثيران. امتنعت عن المشي وحرنت. حركت رأسها بعصبية حتى كادت تفلت الحبل الذي نشدها به. اهتزت بقوة وكادت أن تسقط أمي أرضاً. تشبّثت بفخذها محاولة أن أردَعها. همدت قليلاً قبل أن تتمنع عن المشي رغم محاولاتنا بمساعدة نعيمة جرّها بالقوة.

عادت العجلة بعد وقت قصير تتمنَّع بعدما تصلبت أذناها، وعلا جزع عينيها وانغرست قوائمها في الأرض رافضة أن تتزحزح. قدَّمَت أمي جرّة السمن وسلّة البيض إلى نعيمة وارتمت تمرِّر الحبل على رقبة العجلة وأنا أساعدها في لفه. صرنا نجرها بكلّ قوتنا وأمي تتمتم بأدعية وتدعو الله أن يهديها على السير ومرافقتنا، قبل أن يباغتنا صوت مزمجر من بين أشجار الغابة. شلَّتني قفزة هيكل وحش قبل أن أسقط أرضاً بين قوائم نقوطة حين نطّت محاوِلَة الهروب.

وهي ترفس بقوائمها بشدّة أسقَطَت أمي أرضاً وكادت تسحقها حين التفّت إلى الخلف لتواجه الحيوان الذي ارتمى عليها. نعيمة هوت قربي مرتطمة بقسوة بالأرض وهي تسب الذئب المخيف الذي عاد يرتمي من جديد على فخذ نقوطة. تكسر البيض ورائحة السمن اندلقت بقوة بعدما تكسرت الجرة.

جذبت العجلة الحبل من أيدينا بقوة وقفزت تشقّ طريقها بين أشجار وحشائش الغابة. أمي معفَّرة بالتراب تئنّ وتصرخ صرخات

كان يطلقها القرويون على الذئاب:

هاليك، هاليك... أَوْلْدْ الحْرَامْ...

قبل أن ترفع صوتها بالمناداة على أسماء كلاب تحرّضها على الذئب المتوحش، كلاب كانت موجودة بقريتنا ولم يكن معنا ساعتها سوى أسمائها. كانت تظن أنّ المناداة عليها كفيلة بتخويف الذئب وردعه.

سايرت نعيمة بصوت قويّ صرخات أمي وهي تضرب الفراغ بعصا وتسبّ بفحش ومرارة وتصرخ عليّ:

ارمي بالدجاجتين للذئب.

وكأنّ أسماء الكلاب الشرسة لقريتنا أرعبت الذئب المهاجِم ففرّ بين أشجار الغابة عائداً نحو الجبل، بينما أمي تستحثني لأتبعها حتى نلحق بالعجلة الملعونة قلب أحراش الغابة المتشابكة والمنحدرة إلى الوادي. تمزَّق حذائي البلاستيكي وامتدّ ألم الجراح ينهش قدمي. تبعتُ أمي وأنا حانقة على الذئب والبهيمة.

على منحدر من شجيرات وأشواك ينزل إلى النهر كانت نقوطة عالقة بجذع شجرة للبلوط وقد التفّ الحبل على قوائمها وعنقها حتى كاد يخنقها، ممّا جعلها تتوقف مستسلمة في انتظار أمي التي فسخت الحبل وجرتها وهي تلعن الذئب والعجلة ودنيانا.

وجدنا نعيمة تئنّ وتشتكي من ألمٍ بجَنْبِهَا الأيسر والسمن يندلق على صدرها. شرَعَت تلعن وتسبّ. أشواك عالقة بساقي والدم ينزّ من أصابع قدمي. رحتُ أبحث عن نباتات النعناع البري، لكي أضعها على جراح قدمي، وعن أوراق من سعف الدوم ألفّ بها حذائي الذي

تمزّق. أمي تتوجّع وتمسح السمن من صدر نعيمة، تقبِّل كتفها وتستسمحها على ما سبَّبنا لها من ألم.

ونحن عائدات في موكب أليم، ورغم أنّ خيوطاً ضبابية من لون أسود باهت، شرعت تندلق من السماء لتأذن ببداية انتشار العتمة على ما حولنا، انتبهت أمي لجراح على ظهر العجلة وخيط دماء يتسلَّل بين زغبها. كانت خمشة شرسة من أظافر أو أنياب الوحش قد خطت أخاديد رقيقة غمرها الدم على جلد العجلة.

صاحت أمي تُخبِر نعيمة بجزع أن الذئب قد جرح العجلة. ردَّت المرأة بصوت غاضب آمرة بأن لا داعي للقلق ما دام خليط نبات تَرْهْلْ كفيل برَتْق الجرح.

من بين التلال أطللنا على قريتنا، نسحب العجلة ونطوي الطريق المغبر خلفنا، والليل يطوي بين تلافيفه الأضواء الصغيرة البعيدة لبيوت القرية. نقط ضوء تبرقش ظلمة المدى. يريحني ظهور الأضواء الباهتة بين التلال المخيم عليها شبح الظلام، ويُخيفني غيابها المفاجئ حين نعرج قلب الأدغال. أنوار كأنها عيون أغوال تمتدّ قلب الغابة، أو كأنها أضواء انبثقت من خرافة الغولة وهي تدعو عَبرها الصبايا التائهات في الغابة بعدما طرَدَتهن زوجة الأب من بيتهن والأب غائب.

كان صوت الغولة يتردّد في أذني:

- أنا أمُّكُن الغولة أقْبِلْنَ علي لتسترحن من تعب الدنيا.

تكرّر النداء وهي تهيئ لهن في مخبأ غارِها مواقِدَ من نارٍ لشيِّهن والتهامهن. هكذا كانت تحكي نساء قريتنا حكاية الغولة مع الفتيات

اللواتي ماتت أمهن وطَرَدَتهن زوجة أبيهن من المنزل عندما غاب والدهن فَتُهْنَ في الغابة.

أمي تحكي لي حكاية مخالفة لما تحكيه النساء. تؤكِّد لي بأنّ الغولة ترى أن الإنسان يستحق العيش، وتحترم إصراره في مواجهة الحياة والشرّ رغم ضعفه. فالغولة لم تلتهم الفتيات، بل أعجبت بهن لقدرتهن على الصبر وفكّ الحروف. استضافتهن وزوجتهن بأبنائها الأغوال الذين لم يكونوا سوى أمراء فائقي الجمال من بني البشر سحرتهم ساحرة شريرة.

ولَجْنا البيت. أوقدنا ناراً وربطنا العجلة داخل كوخ المطبخ، وأحكَمنا إقفال الباب علينا ربما مَخافة أن تهرب من جديد. دهَنَت أمي جراحها بعجين عشب تَرْهْلْ، وأصرَّت عمتي على إعادة دهنها بالزيت والسمن وهي تردِّد في نبرة شجيّة:

كُنْ سمناً وبلسماً لجراح هذه الضعيفة.

شاركنا عمّتي النوم قرب العجلة. سمعتُ أمي تئن. في الصباح الباكر لففت قدمي بقماش وربطت على نعلي حبلاً حتى لا ينفلق تحت رجلي وخرجتُ أبحث لها عن حشائش لذيذة.

في الليل كان وجه البهيمة، وألسنة لهيب نار الكانون تضيئه، يبدو جميلاً حنوناً. كنت فرحة وأنا عاكفة على إطعام العجلة بيدي. عمّتي تضفر سعف الدوم لتصنع حبالاً نبيعها في سوق الخميس، وأمي تطبخ الخبز ورائحة طهي الفول تؤثث مجلسنا حول الكانون.

هدوء الليلة عكَّره نداء علا في الصباح الباكر. علت ضجة بباب النوالة. أصوات رجال نعرف بعضها تنادي على أمي وعمتي.

رفضت أمي الخروج لاستقبالهم لأنها لم تكُن ترتدي لباساً يليق باستقبال زوار. عرفت من كلامها أنها تستحيي من ملاقاة رجال بما كانت تستر به جسدها. خرجت عمّتي ممسكة بيدي. كان مُقَدمُ القرية مصحوباً ببعض الرجال في باحة البيت.

ألحّ المقدم على رؤية أمي، وأمام ادّعاء عمّتي بأنها غير موجودة أخبَرنا بين اندهاشنا بأنهم جاؤوا لأخذ العجلة. وبعد أن أكّدت عمتي أنها عجلتنا ولا يمكن لأحد المطالبة بها، ردّ عليها الرجل أنهم يعلمون ذلك، لكنهم مصرّون على أخذها لقتلها وحرقها بسرعة.

هرولتُ إلى أمي، فالتقيتُ بها خارجة وهي تصرخ:

لماذا ستحرقونها؟

تأثّر الرجل ومَن معه بمنظر أمي وهي تواجههم بلباس تحاول أن تسدله على كلّ جسدها ليحجُب ما يظهر منه.

أطرق المقدم رأسه وهو يكلِّمها بلطف:

البهيمة مُصابة بداء السعار ووجب قتلها قبل أن تؤذيكن وتؤذي دواب القرية وأهلها. الذئب الذي هجَمَ عليها في الطريق وعضَّها كان ذئبا مسعوراً. الذئب غير المسعور لا يهاجم أبداً بهيمة وهي برفقة إنسان، وحده المسعور مَن يقوم بذلك.

تابع:

من المؤكد أنّ السعار قد حلَّ بها. فلنقتلها قبل أن يحلّ بنا. سنضطر لحرقها لحماً وعظماً قبل دفنها عميقاً في التراب وبعيداً عن القرية.

بحُزنٍ غالبٍ أضاف:

- هذا قدر الله ولا مجال لردّه.

انبرت أمي تحتجّ:

إن العجلة بصحة جيدة وإننا لم نلاحظ عليها أيّ علامة لداء السعار، وإنه كان أجدى بمَن شاهد الذئب يهجم علينا أن يأتي لمساعدتنا عوض أن يختبئ ويهرع ليبلغكم، لتجتمعوا لقتل البهيمة وما من داء بها.

أضافَت وهي تلملم الثوب الرثّ على جسدها:

- كنّا سنعتني بها ونطعمها علفاً لنبيعها ولنرحل عن هذا الغمّ.

ردّ الرجل متأثراً بما سمع:

- أنتِ تعلمين أننا لا نريد لكُنَّ سوى الخير، والرجل الذي أخبرنا كان بعيداً عنكن ساعتها وكلّ شيء بقضاء وقدر.

احتدمَ غضَبُ عمّتي وصاحت:

لا أثر للسعار على العجلة.

قاطعها المقدم وقد اكتسح العبوس محياه:

علامات السعار لا تظهر سريعاً. الحيوانات تقاوِم سعارها قبل أن يهدّها فيصبح قاتلاً لها ولمَن يحيط بها.

انفجرت عمتي حنقاً وأقسَمَت أنها لن تدَع أحداً يقترب من العجلة، وأنها ستتعرى أمامهم وتكشف عن عوراتها للجميع إنْ حاولوا أخذها، وأنّ كشف امرأة لعوراتها أمام رجال من أهلها هو كشفُ عورات رجال يعتدون على نساء دون رجل يحميهن، وهذا وصمة عار على رؤوس رجال القرية.

تشبَّثنا بالعجلة. قضينا الليل بجانبها غير خائفات من سعارها، نرصد تحرّكاتها ومدى إصابتها بالمرض. عمّتي أحضَرَت ما نملكه من ربطات الثوم، كانت ذخيرتنا التي كنا سنذهب لبيعها في السوق. تركنا نقوطة جائعة قبل أن نقدِّمها لها. التهمتها كلها. شائعة كانت تسري في قريتنا من أنّ تناول الثوم بكثرة يطفئ مرض السعار لدَى ملتهمه، إنساناً كان أم حيواناً.

قبعنا الليل كله نراقب نقوطة عبر لهيب ألسنة نار الكانون التي كنا نذكيها من حين لآخر، والعجلة ممدَّدة قربنا لا تبدو عليها علامات المرض أو الشفاء.

في اليوم الموالي حضر الرجال باكراً حاملين لحبال. لم تنزَع عمَّتي لباسها كما وعدت. أمي هدَّدَتها بأن تخاصمها إن أقدَمَت على ذلك، فعوَّضت عريها بعري لسانها الذي سال منه الشتم والسبّ للرجال الذئاب والسعار القابع بين أفخاذهم، وللدنيا البلهاء التي تحمي أمثالهم وتحرمنا من عجلتنا.

بدأ الرجال يُكَبِّرون ويتقدَّمون نحو العجلة لرمي شبكة من الحبال على رأسها. لجموا فمها حتى لا تعضّ أحدهم كما قالوا. استسلامها الحزين الهادئ لقَدَرِها كان مثيراً لدمعي ودمع أمي.

حاولتُ اقتفاء الرجال وهُم يجرّونها نحو الغابة ويُكَبِّرُون. نهرني المقدم وأمرني أن أعود.

جو جنازة في بيتنا. لم يشاركنا أحد من الجيران مصابنا. بعض الجارات قدَّمت لنا العزاء بأصوات مرتفعة من خلف حوش البيت. كن خائفات من السعار الذي ضرب بيتنا. وحدها نعيمة شاركتنا

حزننا وحملت لنا بعض ما نقتات به.

علقت عمّتي:

يظهر أنّ النحس يتبع الأنثى عندنا حتى ولو كانت من البهائم.

قتلت العجلة، أحرقت، ودفنت بعيداً في الغابة، وظلَّت صبايا القرية ينفرن مني كلّما اقتربتُ منهن في الغابة أو عند ملء الدلاء من عين ماء القرية، وهنّ يوشوشن بما يوحي أنني قد أكون حاملة لمرض السعار، وأنني قد أشكِّل خطراً عليهن. تسلَّقت شجرة الأوكاليبتوس على الكدية قرب بيتنا وربطتُ عليها أرجوحة من حبال وصرتُ بعدما أنتهي من الرعي أظلّ أتأرجح حتى أتعب.

ما فتئت أمي تذكِّرني بوجوب هجرتنا إلى المدينة قبل أن أحرم بسبب كبر سني من ولوج المدرسة. الأيام التي مرَّت بعد ما فقدنا بقراتنا وعجلتنا شحّ فيها غذاؤنا. ما كنّا نحتفظ به من قمحٍ وشعير وذرة حمراء اقترَبَ من النفاد.

حين توقظني أمي بحزمٍ زائد أعلم أننا مقبلات على يومٍ غير عادي. ذاك الصباح لاحظتُ أمي مشمِّرة على ساعديها، نشيطة على غير عادتها. حملنا أواني وأغراضاً وبطانيات وبعض ما سنأكل وحملت عمّتي دقّها. تسلحت أمي بساطورين، ناولتني فأساً وأعطَت عمّتي بتارة. أخذنا معنا الماعز وتسلَّلنا نخترق الغابة.

تعمَّقنا قلب الغابة. صنعنا من أغصان الأشجار ما يشبه كوخاً. ربطنا الماعز بين الأشجار وبدأنا نبحث عن جذور وأعواد سميكة من الأشجار اليابسة. نختارها من شجر الفلين وأَسَاي التي تنضج سريعاً بالنار وتعطي فحماً من نوع جيد لا يحترق بسرعة، ولا يبعث احتراقه دخاناً، كما أنّ جودته تُعرف من النظر إليه ممّا يجعل الطلب عليه كبيراً.

تظلّ عمتي قرب الكوخ والماعز وما جمعناه من حطب، ويبدأ

طوافنا من الصباح حتى المساء في أنحاء الغابة. تكون المنافسة شديدة بين أهل القرية في البحث عن جذور الشجيرات، فنبتعد داخل الغابة حتى نتمكّن من الوصول إلى أماكنَ لم يصل إليها أحد.

مراراً يتبادل أهل القرية وخاصة الأطفال، السبّ والشتم والضرب للاستحواذ على الأماكن المفضَّلة، وبسبب ادِّعاء كل منهم أنه كان السبَّاق إلى اكتشافها والوصول إليها.

لصناعة فحم جيد كان علينا أيضاً قطع واقتلاع جذور الشجيرات الصغيرة. كان ذلك مؤلماً يسلخ يدي من الحفر والقطع، خاصة أننا لم نكُن نملك منشاراً. ثم كان علينا أن نحمل ما جمعناه حُزُماً على ظهورنا إلى حيث تنتظرنا عمتي.

نحفر حفرة واسعة في التراب، ونفرشها بأغصان مورِقَة ثم نكوِّم الحطب على شكل كومة كبيرة، ونبلط عليها بالتراب قبل أن نثقب ثقوباً ليدخل الهواء بمقدار، فلا تنطفئ النار ولا تتّقد بقوة فتلتَهِم كلّ الحطب. ثم نداوم على حراسة الفرن ليلاً ونهاراً ثلاثة أو أربعة أيام. الكوخ كان يقينا الحرّ نهاراً ولا يقينا البرد والخوف ليلاً. تمنيتُ لو كنّا نملك كلباً. كانت أمي قد نبَّهتني من قبل:

لا تكوني حمقاء، لم نملك كلباً ووالدك بيننا فكيف نملكه الآن؟ معظم كلاب القرية لا تنبح إلّا بعدما تتوكّأ على جدار الزريبة أو على جذوع الأشجار من شدّة جوعها، فكيف بكلبٍ سنربيه نحن اللواتي لا نجدُ ما نأكله!

كنت قد عثرتُ على كلب صغير لكن أمي أمَرتني برميه. ذهبتُ إلى الغابة، صنعتُ له وجاراً قلب خندق بين شجيرات الدفلى، فرشته

بالحشائش الجافة الدافئة، أحضرتُ قطعة منديل ممزَّقة وجعلتها له مفرشاً حتى لا يتألّم من البرد. كل يوم كنت أذهب لأراه وأطعمه ممّا أخذته من المنزل. وجدته ذات صباح ميتاً فدفنته في حفرة.

يتمطى الخوف في قلوبنا حين يقترب الليل، فنجلس داخل ما بنيناه كوخاً قرب ماعزنا، نقتات ممّا هيّأنا من طعام وتشرع عمَّتي في ترديد أغانٍ جبلية. كانت لها براعة خاصة في توليف كلام مقفى ليصبح أغاني. لم تكُن تنسى أن تُقحم اسم العريبي والفقيه المداوي قدحاً وهجاء ثم تهجو عماها وتهجو الدنيا، قبل أن تحمد الله على ما أتاها. بين أغنية وأخرى تطلق صيحة غنائية أو موالاً يشقّ الأفق فوق تلال الغابة. لكن ما إن تتشابك خيوط السواد في نسج عباءة الليل حتى تمنعها أمي من أن ترفع صوتها خوفاً من إثارة الحيوانات أو حيوانات البشر كما كانت تقول. وحتى لا يأخذنا النوم بعدما يحفّ بنا الليل تبدأ عمّتي في الدندنة ويدها لا تفارق البتارة بينما تقبض أمي على الساطور وهي تغالب النعاس.

كنت أستشعرُ خوف أمي وعمّتي في الليل رغم ما تحاولان إظهاره من قوة وشجاعة. وحيدات كنّا ملزَمات باليقظة والاحتراس في قلب الليل الذي لا يحمل إلّا ترقُّب ما يُرعب. كان فرن الفحم يتوسّط أرضاً عارية قلب دغل من أشجار غابوية باسقة تحجب عنا رؤية دخان الأفران الأخرى التي يقيمها أهل القرية.

يتخلى الخوف عني قليلاً حين تسمح السحب للقمر بالظهور واضحاً، فينبعث نوره أمناً وسلاماً علينا، ممّا يمكِّنني من الرؤية من بين أعواد الكوخ ومراقبة المنافذ بين الأشجار، قبل أن أعود أقلب

عيني بين ما يظهر من منافذ في رهبة.

نتردَّد في أن نوقد ناراً عند باب الكوخ. إنْ أوقدناها نخاف من أن تدلّ قطّاع طريق علينا وإنْ لم نوْقِدها نظلّ خائفات من أن تُهاجمنا الذئاب أو الخنازير البرية أو الشياطين. تحسم عمتي الأمر بأن تأمر أمي بأن تُشعل النار وهي تتحجج:

- إنّ الدخان المتصاعد من فرن الفحم يظهر من بعيد رغم الظلام ويدلّ علينا. إشعالها قد يحمينا من الحيوانات، أمّا البشر فقد لا يخطر ببالهم أن نساء لوحدهن قادرات على إشعال النار وسط الغابة.

تصرّ عمتي أن نوقد النار في كانون نحفره في الأرض وتنصحنا:

احترِسا على النار فهي وحدها التي تحمينا الآن.

لكن النار لم تحمِنا ليلة علَت خشخشة بين أشجار الغابة من حولنا. يعمّ الصمت قليلاً ثم تعود الخشخشة بصوت أعلى. وقفت أمي متسلِّحة بالساطور تبعتها عمتي بالبتارة. نادي، نسب، نهدِّد، نهشّ الفراغ. يعمّ الصمت قبل أن تعود الخشخشة من جديد.

ظلَّت الخشخشة بين أشجار الغابة وقتاً غير قصير تتلاعب بنا، رأت عمتي أنّ هذا لن يكون سوى ذَكَرٍ يحاول أن يخيفنا وليس رجلاً، فالرجال الأحرار لا يُرْهِبُونَ النساء. صارت تنادي إن كان رجلاً أن يقترب. لا رد.

جلسنا بَكْماوات قبل أن تأخذ عمّتي الدف بانفعال وتُشعِل حنجرتها وتُشعل الغابة طرباً. كانت تنشد، وتذكر الله. أمي التي ظنَّت أنها ستمنعها خاطبتها متهكمة:

واصلي فقد تجعلين جنّ الغابة يرقصون.

كنت أحاول أن أشارِكَها الغناء، لكنني اكتفيتُ بدندنة أداري بها خوفي.

رغم حرصنا واحتراسنا غدرت بنا نار الكومة في يومها الثالث فاستيقظنا مرعوبات بعد أن غفونا والنيران تشتعل في الفحم والتراب. حاوَلنا جاهدات إطفاء النار المشتعلة قلب الكومة. أفرغنا عليها ماء القلة الوحيدة التي كانت معنا، والتي لا يمكننا إعادة ملئها لبُعدنا عن النهر. لكن النار تأجَّجت حتى احترق الفحم والتراب.

كان علينا أن نُعيد كلّ ما قمنا به من البداية. قضينا أسبوعاً آخر في الغابة في انتظار طهي الفحم من جديد ونحن متوجِّسات من أن يحترق مرة أخرى. أمي صارت تهلِّل فرحة حين نضج وأزحنا التراب من فوق الفرن. كان فحماً من النوع الجيد.

استغرقنا يومين في نقل الفحم إلى البيت. انتظرتُ بفرح يوم السوق لنشارك نساء القرية التوجّه لبيع فحمنا. حمَّلتني أمي كيساً وحملت هي كيسين عدنا مع بداية هطول سواد الليل والتعب بادٍ علينا ووجوهنا معفَّرة بغبار الفحم. فرحت يومها ممّا جنيناه من بيع الفحم، اشترينا صابوناً وزيتاً وسكراً، وصينية وكؤوساً من زجاج، وعلبة بسكويت بغلافٍ مذهّب جذّاب.

غيَّرت النساء السوق الأسبوعي وبدأن يتوجّهن إلى بلدة الزرقاء، لكنهن صرنَ عرضة للمطاردة والاعتقال من طرف أعوان مراقبة الغابات. هؤلاء أرغموا مرة أمي على أن تقدِّم لهم كيس فحم من بين الكيسين المحمَّلة بهما للسماح لها بالوصول إلى البلدة وعدم

اعتقالها. يومها عادت أمي بوجهٍ متعب حزينٍ لكن الألم الذي كان يكسو وجهها سرعان ما مسحته بابتسامة، وهي تنهض لتهيئ اللحم الذي أحضرته من السوق عشاء لنا.

وجبة العشاء اللذيذة كانت كافية لتجعل ليلتنا يطبعها دفء ومرح أطلقا العنان لغناء عمّتي وحكاياتها وضحكاتها. مدَّت عمتي يدها تتحسَّس طبق العشاء وهي تسأل إنْ كان صحن اللحم يحوي قطعاً كثيرة... ضحكَت ملء شدقيها حتى دخلت في نوبة من السعال وهي تذكِّرني بحضورنا لعرس بنت الغالية في حومة الكرمة. أطلقنا على تلك الليلة ليلة اللحم.

كنا قد جلسنا لنتناول العشاء في مكان مظلم. أنزلت طباق كسكس من الذرة الحمراء. قبضت يدي عمتي وأوصلتها إلى قلب الطبق. سقطَت أصابعنا على القطع الصغيرة والقليلة من اللحم. أخذنا تلك القطع والتهمناها. وأنا أمدّ يد عمتي إلى الطبق مرة ثانية، ارتفعت أصوات النساء المشاركات لنا جلسة الأكل، والباحثات عن قطع اللحم، ثائرة غاضبة متسائلة كيف تتمّ إهانتهن من طرف أم العروس التي قدَّمت لهن كسكساً دون لحم. توقّفن عن الأكل بعدما قلبن بأصابعهن دقيق الذرة قلب الصحن، ولم يعثرن على أيّ قطعة. علا ضجيجهن واحتجاجهن والنداء على أمّ العروس التي حضرت لتُقسِم أنها لم تستثنِ صحناً واحداً من اللحم، وأنها فرقت قِطَعَهُ بالتساوي.

ظللتُ أنا خجولة مختبئة في جبّة الظلام أداري قلقي وندمي، بينما ظلَّت عمتي جامدة، الشيء الذي لم ينبّه النساء إلى ما فعلناه.

طريقنا نحو البيت بعدما انقضى الحفل كان قهقهة، أنسَتْني صعوبة الطريق في الظلام وأنا أقود عمّتي حتى لا تتعثر.

كان سرد وقائع الحادثة تلك الليلة مناسَبَة لنا نحن الثلاثة لننفجر ضحكاً ممّا جعَلَنا نتوقف لمرات عن الأكل قبل العودة إليه.

حين تتوالى المصائب يبقى الذِكْرُ ملاذنا. بيتنا لم يكن يخلو من الذكر. تفتَح عمتي الوِرْدَ وتدعونا إلى مشاركتها. كانت توصينا قائلة إنّ ثلاث إناث غادرهن رجل الدار قابعات لوحدهن في هذا الربع الخالي لا يحفظهن سوى العمل والإكثار من ذكر الله وقراءة اللطيف. ويوم حلّ الملعون بديارنا كثيرٌ من أهل القرية قبعوا في بيوتهم مثلنا يذكرون الله.

كان الكلّ يقرأ اللطيف ويدعو الله أن يحمي دجاجاتهم وديوكهم من فتك وباء القذى. كثيرون منّا يعوّلون على بيض الدجاجات في أكلهم، وعلى بيعها عندما تشتدّ حاجتهم إلى دراهم قليلة يقضون بها الضروري من حاجاتهم وعلى مرقِ لحمها حين يهاجمهم المرض.

وِرْدُ ألطافنا لم ينجَح في إيقاف الوباء من التنكيل بدجاجاتنا. طرقَ الوباء كلّ أبواب دُور القرية، وأعلنَ فقيه المسجد عن الحلّ واستنفر أهل القرية حتى ينفِّذون خطته.

يخرج الطُرُنْكو بجسمه العريض وطوله الفارع -أضخم رجل في قريتنا- يرافقه شِيبُو صاحب شارب كثّ ولحية طويلة شديدة

الكثافة، وتبدأ عملية تخويف وترهيب القذى حتى يرحل عنا ويترك دجاجاتنا وديكنا آمنة. يقضي الرجلان اليوم كله في التنقّل بين بيوت القرية وبساتينها. يضرب الأول على طبل كبير فينبعث صوت قوي مزعج، ويتبعه الرجل الثاني وهو يلوّح بمهارة بمقصّ كبير من حديد صدئ ويقطع به الهواء. تخرج النساء لاستقبالهما حين يدخلان باحة المنازل لتدلّهما على أعشاش وخمم الدجاج حيث يؤديان هناك وصلة طويلة من ضرب الطبل، وقصّ الهواء وهما يرميان بكلمات سبّ وشتم يخيفان بها الوباء.

في باحة بيتنا بدا التعب واضحاً على الرجلين وخاصة على شيبو، حين أدّيا طقس الشفاء تحت شجرة الأوكاليبتوس التي تتخذ الدجاجات من فروعها مكاناً للنوم، قبل أن ترغمها دوخة المرض على الاكتفاء بالانحشار على الأرض حول جذع الشجرة مخافة السقوط من أعلى، والانكماش في انتظار الموت.

مع عمّتي كنت أتابع من باب البيت ما يقوم به الرجلان. الرجل ذو اللحية ما فتئ ينادي على أمي بصوت مرتفع مردداً أنّ خروج أهل الدار لملاقاتهما ضروري لاستكمال عملية الشفاء. عمتي التي لا ترتاح إلى شيبو لأن عينيه الخضراوين، اللتين تتمنى لهما العمى، تؤذيان الورعة من النساء كما قالت، اعتبرت إلحاحه على رؤية أمي ما هو إلّا رعونة وتحرُّش هي تدري مآلهما.

دون أن تلبي طلبه بالمناداة عليها، اقتربَت منه وصارت تحثّه أن يُكثر من قصّ الهواء بالمقصّ الكبير ويداه مرفوعتان نحو أغصان شجرة الأوكاليبتوس حتى يُبيد الوباء الهالك المحيط

بالشجرة ويفتته جيداً.

تعب الرجلان. صارت ضربات المقصّ والطبل ضعيفة، وعند استعدادهما للانصراف توجَّهت عمتي نحوهما وطلبت منهما إعادة طقس العلاج مرة ثانية حتى تعمّ بركتهما أكثر، وحتى تقدِّم لهما أجرتهما التي نسميها الفُتُوحْ -خبزة ودرهماً- على منوال ما تقدِّمه باقي البيوت، ليفتح الله على الدجاجات بالشفاء ويقضي على المرض. لكن الرجلين اللذين كلَّت أيديهما، من دون إطلالة من أمي رَفَضا، فما كان من عمّتي إلّا أن تقدَّمت نحو شيبو وقالت له وقد فاضَ التجهّم على محياها:

- لو كانت الشوارب واللحى تَصنع الرجولة وتخيف، لكان القذى يخاف من التيوس. فحتى التيوس لها لحية.

وأمام تجاهل الرجل لكلامها أضافت في تهكّم غاضب:

- القذى كان سيخاف أكثر لو أريتَه لحيتك التحتية.

كانت عمتي غاضبة، فمعظم دجاجاتنا نفقَت وما تبقّى منها يتّضح من حالتها أنها لن تفلت. وإذا ما تحمَّلت إحداها ضربة العدوى وقاومت فلن تخرج منها سليمة. فالدجاجات التي تظلّ حية تحمل معها لوثة جنون تعذِّبها وتتيهها. في مرور فائت للوباء دجاجة واحدة سَلِمَت لنا من الموت، لكن بيضها انقطع وصارت تنقنق وتصرخ بطريقة غريبة ومقلقة ليلاً ونهاراً. عمتي التي ترى أنّ الوباء ما هو إلّا مسّ من دجاج الجن لدجاج الإنسان، ظلّت ترتاب من الدجاجة وتَهابها إلى أن انقضَّت عليها يوماً وخنقتها.

خلال هذه الجائحة نجَت دجاجة جارتنا الضاوية التي يقبع

بيتها غير بعيد عن كديتنا في منحدر الغابة، لكن عنقها اعوجّ ورأسها أصبح لا يتوقف عن الحركة. لقد سكنها بُوطْزْطَاْز كما أكّدت عمتي. صارت حين ترغب في وضع بيضها، تهاجر من عشّها إلى باحة منزلنا وهناك تندسّ تحت سِمَاطِ أعواد الحطب المخصَّصة للطبخ وتضع بيضها. أنتظرها وأضع ما وضعته في جيب سروالي المصنوع من خيط الكتان، وأسرع إلى كوخ البقال لأبادلها بحبّة حلوى أو قطعة بسكويت، وعندما أكون جائعة أشويها في الرماد الساخن وآكلها.

لم تطُل فرحتي بما أعثر عليه من بيض منذ أن صادفت جارتنا الضاوية توبّخ ابنها اعْلِيلْشْ وتضربه ضرباً مبرحاً بعصا وتصرخ عليه :

- كيف تسرق بيض الدجاجة؟ وحدَه الكافر يأكل رزق أهله لوحده.

ندَمي تخلّصت منه بأن ظللتُ أباعد لأيام الدجاجة عن مدخل دارنا، وأطاردها كلّما رمقتها تعتزم صعود التل نحو بيتنا.

لم يكن تخليَّ عن سرقة بيض الدجاجة سبَبه ندمي وحده، بل أياماً قبل ذلك كنت قد رافقت أمي إلى مزار سيدي رشون الذي يقع قلب أجمّة كثيفة ومنعزلة من أشجار الغابة لنضع دراهم نذوراً حتى يعود أبي إلينا. الضريح عبارة عن كوخٍ من الحجر بقبّة صغيرة بجانب صهريج ماء، يقصده القرويون ليبارك لهم صبرهم في الحياة، وليلتمسوا منه أن يرش عليهم من خيره ونعمه.

وحدي عدتُ عشية الغد أقطع الغابة قبل أن أدلف إلى المقبرة

لأصلَ إلى موقع المزار. هناك داخل صهريج الماء الذي تفترش قاعه وجوانبه أعشاب وطحالب خضراء وتسبح فيه أفعى ماء نسمّيها نونة سيدي رشون، بجسمها اللزج الذي يُثير التقزّز، كانت قطع نقود نحاسية مرمياً بها كنذور. تسلَّلت وأنا جائعة وريوق من لذّة متوهمة بقضم بسكويت تنسكب في فمي. كان المغيب يسدل هيبته على المكان ويزيد من هيبته في نفسي. تناسيت خوفي واشمئزازي من النونة رغم ما يُقال عنها من أنها من سلالة ثعابين البحيرة السوداء. نداء النقود كان أقوى. نزلتُ إلى الصهريج وأخذتُ القطع النقدية. زقزقة طائر مفجِعَة عَلَت فوقي. اعتبرتُها نذير شؤم. فكَّرت في كبت ما بي من رغبة وإرجاع النقود إلى مكانها، لكنّ توقي إلى قضم البسكويت جعلني أتراجع. شدَدت يدي عليها وهرولت في اتجاه بيتنا ينهَبُني قلق مفترس.

شاعَ خبر سرقة نقود الضريح. انتظر القرويون على مَن ستحلّ لعنة سيدي رشون، حلمتُ بطائر يعاتبني ويدعوني للطيران خلفه نحو سحب سوداء وأنا مبهورة وخائفة.

***

نحن الرعاة نملّ أحياناً ما نقوم به. يتكرّر المشهد كلّ يوم، ماعز ترعى وقلقٌ من أن يفاجئنا ويفاجئ ماعزنا ما يسكن الغابة. لا يُجدي الحب الكبير الذي أكنّه لمعزي في التخفيف من ثقل ذاك الملل.

وأنا أرعى الماعز في خندق العرعارة قرب دغلٍ كثيف من

أشجار فلين باسقة ونبات العليق وشجيرات غابوية متكتِّلة فيما بينها، تحرَّكت الأشجار بقوة وعلا صوت انقصاف الأغصان ومعه صوت شهيق قويّ لا يُشبه شهيق الإنسان ولا شخير الحيوان. اندسّ الخوف في قلبي.

قفزت الماعز نافرة بعيداً عني. تشتَّت ذهني من الخوف الكبير فلم يعُد يُسعفني سوى فراري وجريي بأقصى قدرتي متعثرة بأغصان وجذوع الأشجار. لم أستطِع انتشال منديلي الذي علق بين الأغصان الكثيفة. وصلتُ مذعورة أرتجف إلى البيت. بكلامٍ متقطِّع حكيتُ لأمي كيف أنّ عفريتاً أسود باغتني من قلب الدغل الكبير، وأنّ المعز نفرت وهربت. أكملتُ قولي:

صوته كصوت الجنية التي سكنت يحيا النسا في الغابة.

دثَّرتني أمي. ثم هرَعَت إلى الغابة قبل أن تعود والغروب على مشارف بيتنا تجرّ خلفها ماعزة واحدة وصغيرها. مَبيت الماعز في الغابة هدية ثمينة للذئاب المتوحشة التي تخرج للصيد في الليل. كان علينا أن نستعين برجال القرية للبحث عن التي ضاعت منّا قبل خروج ذئاب الليل. قدتُ عمتي بين الأحراش لندقّ أبواب الجيران القريبين والبعيدين نطلب منهم المعونة. تطوَّع بعض الرجال بعد أن تعهَّدت أمي بأداء ثمن الغاز لإشعال الفوانيس التي سيحملونها ويهتدون بها ليلاً قلب الغابة.

الدراهم التي وفَّرناها من بيع الفحم كنّا قد صرفناها منذ مدة في شراء حاجياتنا الغذائية الضرورية. لم يكن لدينا ما نؤدي به ثمن الغاز. بحثَت أمي عن يحيا النسا. كان قد رافق نعيمة في

زيارة إلى المدينة.

تمنّيت لو أتخلّص من القطع النقدية الصغيرة التي سرقتها للتخلّص من لعناتها. فكرتُ أن أقدِّمها لأمي، لكنها سنتيمات لا تفي بالغرض. صرتُ متيقنة أنّ ما حلّ بنا ليس سوى لعنات سيد الضريح.

طغى عليّ الخوف من حالنا، يتمدَّد سؤال مُقلِق داخلي:

- إلى ماذا سيؤول حالنا؟

أغلق عيني حين أتخيَّل ذئاباً تفترس حيواناتنا اللطيفة بوحشية. تحضُر ذهني صورة الشجيرات الكثيفة وهي تهتزّ بسبب حركة الشبح العفريت. يسحقني الندم، لِمَ سرقت بيض الدجاجة ولِمَ سرقتُ نقود الضريح؟

أشرد. تنبِّهني والدتي برفق:

-لا نعيش إلّا ما كتب الله لنا.

عضَّني القلق حين شرع الليل يهوي على تلال الغابة بسواده ويقلِّص من أمل العثور على الماعز. بعدما رصّ الليل سواده حضَرَ بعض رجال القرية يتقدَّمهم العكروط لمساعدتنا في البحث. فرحت كثيراً حين لمحتهم يحملون فوانيس مُضاءة. قال العكروط إنه تكلَّف بأداء ثمن غاز الفوانيس. ودعتهم أمي بحرارة وهي تشكرهم وتدعو لهم. وقفنا نطلّ عليهم من فوق التلّ وأضواء الفوانيس تتوغّل في الغابة المظلمة.

أتتبع كرات الضوء الصغيرة وهي تغيب وتتجلى على تلال الغابة المواجهة لنا والبعيدة عنا، وأدعو الله أن يجد الرجال المعز سليمة. أتذكّر ما سرد عليّ من قدرة الطيور على مساعدتنا، فأحملق

في رفوف الظلام علّني أشاهد طائراً ما وأترجاه أن يدلّ الرجال على موقعها. لم يكن هناك أيّ طائر يعبُر الليل.

ظللتُ طوال الليل متدثِّرة في منديلي قرب عمّتي متكئة على حائط بيتنا أتابع اختفاء الأضواء وظهورها وأخبر عمّتي بمسارها. لم نَنَم ليلتها حتى عاد الرجال. عادوا بمعزة واحدة. حزننا كان كبيراً.

في الصباح الباكر وبعد نوم متعثِّر، خرجتُ مع أمي وانطلقنا نبحث. أضرب بالبتارة شمالاً ويميناً حواشي كلّ دغل نمرّ به. نداءاتنا المتواصلة تكلَّلت بالنجاح حين علا ثغاء حمورة بين الأحراش.

عُدنا إلى البيت وبقيَت بيوضة وحروشة تالفتين. قبل المساء حضر العكروط إلى بيتنا متأهِّباً للخروج للبحث من جديد عنهما. قال لأمي:

- اعلمي أنك عوّلت على رجل وسأقلب كلّ الأحراش والخنادق بحثاً عنهما. وذلك مجاناً.

قبل أن يستأنف:

- وذلك من أجلكن. أما عن نقود غاز الفوانيس فلقد اقترضتها ولا أملك من أين أسدِّدها.

عاد الرجل مع صباح الغد يحمل رأس بيوضة في يده ويعلن في أسف أنّ المعزة افترستها الذئاب وأنه أحضَرَ رأسها لنتأكد من ذلك.

بكَت أمي بيوضة. في الغد رميتُ القطع النقدية التي كنت قد سرقتها في النهر. معزتنا حروشة لم يظهر لها أثر.



أيام قليلة بعد الحادث دخل فناء بيتنا العكروط يلحّ في طلب ثمن الغاز. لم تكن أمي موجودة. أمَرَتني عمّتي بأن أذهب إلى منزل أمينة، قريبة لنا في التلّ الآخر من القرية لإحضار قارورة من ماء زهر البرتقال.

كان الصباح وكنتُ جائعة. تمنيتُ في طريقي أن أجد المرأة تطبخ خبزاً. من عادة أهل القرية حين يطبخون خبزاً أن يقدِّموا قطعة للقادم عندهم. لأمينة بقرتان. منذ ترحيل بقراتنا لم أذُق طعم اللبن. تمنيتُ لو تهديني كأساً مع الخبز الساخن. لم تقدِّم لي يومها إلّا قارورة صغيرة من ماء الزهر.

عدتُ جائعة. في طريقي رمقتُ من بعيد العكروط ينزل من الكدية وينسلّ بين الأشجار هابطاً في اتجاه النهر. حاولتُ الابتعاد من طريقه حتى أتفاداه. لكنه عرج حتى يلتقي بي قرب عين الماء وبشاشة ترتسم على وجهه.

لم أكُن أرتاح للرجل. ثنيتُ أصبعي الوسطى ووجَّهتها نحوه. كلما أحسستُ بغضب ما إلّا وفجرته بثني أصبعي وتوجيهها إلى ما يغضبني. عادة تعلَّمتها من عمتي.

كان يرسم على وجهه ضحكة خفيفة، رأيتها شامتة.

العكروط يُعرف بين أهل القرية بابتسامته الشامتة. يقولون إنّ له ابتسامة شيطانية يرخي لها العنان حين يتمكّن من غريم له. الابتسامة صارَ يُضرب بها المثل منذ ليلة حادثة مُقَدم قريتنا السابق.

كان الرجال مجتمعين في مقهى القرية، كوخ قرب منبع النهر في سفح الجبل، يتجادلون حول الشجاعة والرجال الشجعان. الحديث

في قريتنا عن الشجاعة والبطولة لا يمكن أن يتمّ دون أن يعرج على الجنّ ومواجهته.

انبرى مقدم القرية، كما تفرض عليه مكانته كممثّل لسلطة المخزن، يعتزّ بشجاعته في مواجهة الإنس والجن وحتى العفاريت ولو كانت في أشدّ غضبها وعنفوان نيرانها، قبل أن يتطاول على أفاعي البركة منقصاً من قدرة الشيخ حيون وكراماته. كان يوضح أنّ الجن لا يتعرَّضون بشرٍّ إلّا للجبناء من بني الإنسان. أمّا الشجعان مثله فلا خوف عليهم ولا هم يخافون.

بعدما هاجَ الليل وكَلَّ لسان المقدم من عرض حكايات شجاعته كان عليه أن يقطع سواقي المياه والمروج، والعبور بين أشجار القسطال والجوز وأشجار أخرى غير مثمرة، وأن يسمع أصوات البوم وأصوات الليل وأصوات جن الليل وأن لا يأبه بكلّ هذا. ثم كان عليه أن يمرّ على جذع شجرة ممتدّ فوق غدير ماء تحفّه الأشجار من كلّ الجهات، يُستعمل كقنطرة جدّ ضيقة، تحت سقف كثيف من أغصان وفروع أشجار العليق يمنع مرور أشعة الشمس في النهار.

من يقطع الغدير نهاراً عليه قراءة البسملة، أما في الليل فلا يجرؤ على المرور فوق تلك القنطرة إلّا الشجاع من الرجال.

حين كان مَقدم القرية يعبر القنطرة ومواويل الضفادع ونقنقاتها ترافق صوت رقرقة المياه بين الأحجار، وعندما اقترب بحذرٍ من وسط الجذع، شَعَرَ بعمامته تنزع من فوق رأسه وترتفع كأفعى تسعى نحو الأعلى... مأخوذاً مدّ يده محاولاً القبض على العمامة الأفعى،

لكن قوة ما نترتها من يده ورفعتها إلى سقف الدغل. كان آخر ما رأى هو ذيل عمامته أو ذيل أفعى تتسلق الفراغ الأسود، وآخر ما سمعه كان فحيحها قبل أن يهوي قلب الغدير ويستبدّ به الفزع هو وسكان الغدير. تخبَّط في الماء المظلِم وصاح وصَيَّحَ.

تحكي زوجته أنّ صياحه وهو يهرول نحو بيته طغى على نباح الكلاب. جفاه النوم طيلة الليل، وفي النهار ظلّ يضرب بيديه ما عَلِقَ به من ضفادع وثعابين وصغار العفاريت.

سكن سكان القرية الخوف ممّا هاجم المقدم، ولم يعُد الرجال يَسمرون في المقهى إلى ساعة متأخرة، وظلّوا متوجسين من الليل وظلماته إلى أن ظهر العكروط في المقهى يحمل عمامة الرجل في يده، والبسمة الشامتة التي صارت سِمَته ترتسم على وجهه.

سخر القرويون من شجاعة مَقدم قريتهم، وصاروا يحكون كيف أنه ليلة جنونه سبقه العكروط إلى الغدير، واختبأ فوق فروع الأشجار ممتداً على بطنه منتظراً له حتى وصل إلى وسط الجذع القنطرة، وكيف مدَّ يده ونزَعَ العمامة ونزع عقل الرجل.

لم يُشْفَ المقدم رغم علمه بالحكاية. رَحَلَت عائلته إلى المدينة. لكنه كان يُشاع عنه أنه من وقت إلى آخر، تعود الضفادع والأفاعي وصغار العفاريت تعتلي جسده ووجهه، وهو يهش عليها ويقتلعها من ثيابه، وينفضها عن جسمه.

ذكَّرتني ابتسامة العكروط حين التقيت به بهذه الحكاية التي يحكيها الصغار والكبار في القرية. تخيَّلت شغبه وقدرته على إيذاء الآخرين. تهيَّبت منه وأحسَسْتُ بانقباض من نظرات عينيه اللاهبة.

دخلت باحة المنزل. كان باب البيت مواربا، اشتممتُ رائحة حزنٍ كبير، وحين دفعته كانت عمَّتي في مدخل البيت، في المجرى المخصص للوضوء والغسل جالسة على كرسي من قشور الفلين عارية مولية لي ظهرها وشعرها مسترسل، وهي تصبّ الماء على رأسها. كانت تبكي وتغتسل.

استشعرتُ كأنّ شيئاً ما غير عادي قد وقع. لا أعرف كيف لكنه وقع. وقفتُ شبه متيبِّسة والسخط يتأجّج في أعماقي. قهر داخلي بسطوة لا تقهر. لم يكن من كلام أجدى ساعتها سوى كلام الصمت. أحسستُ أنه عليَّ أن أختلي بنفسي. عادة حين كانت تَضيق بي وحدتي في بيتنا وتضيق بي نفسي أجري إلى المروج، أقطع زهرة الأقحوان، وأشْرَع في عدّ وُريقاتها أو أجدل شعر عرانيس الذرة ضفائر. في تلك الظّهيرة شديدة الثِّقل على النّفس دخلت نوالة المطبخ، أضرمتُ نار الكانون. لم أتوقّف عن رمي عيدان القش والأغصان الجافة قلبها.

رغبتُ في طبخ عجين الخبز المختمر وفجأة لم أعُد أحس بالجوع. قصدتُ الزريبة أخرجتُ المعزتين وانطلقتُ بهما نحو الغابة.

في صباح الغد وجدتُ عمّتي جالسة تشتم وتُقسم بخَصي كلّ من العريبي والفقيه المداوي والعكروط. ترفع رأسها إلى السماء وتطلب من الله أن يُعيد لها بصرها يوماً واحداً لتنتقم من هؤلاء.

لم يمرّ اليوم حتى انتشر في القرية أنّ معزتنا بيوضة التي ادّعى العكروط أن الذئاب أكلتها، لم يأكلها إلّا هو حين وجَدَها تائهة في الغابة وذبَحَها وأحضر لحمها إلى داره، ورأسها منزوعاً إلينا، وادّعى

أن الذئاب افترستها.

الألسن التي تداولت ذبح المعزة، تداولت زيارة قام بها العكروط إلى منزلنا في غيابي وغياب أمي وأنه طالَبَ بنقود الغاز... وأنه بعدها ادّعى أنه ما أخذ إلّا حقه، لكن بطريقته التي فضَّلَها ويفضِّلها.

***

في الغد طلبَت مني أمي أن أعود من رعي الماعزتين بعد الظهر. قدَّمت لي حبالاً ربطت بها كل واحدة على حدة. بانت لي قلقة وحائرة ولو كانت تبدو نشيطة وهي تكدِّس بعض أغراضنا الخفيفة الوزن من بطانيات وملابس وبعض الأواني الضرورية داخل أكياس من الكتان.

قالت لنا بغضب وصرامة:

رجلٌ من قرية مجاورة ادَّعى أنه شاهدَ والدكِ البارحة في المدينة. نحن مقبلات على مهمة صعبة. سنرحل الليلة وسنصل بسلام إن شاء الله.

شككتُ فيما تدَّعيه. تذكَّرت حادثة ما قبل أمس ببيتنا. اغتسال عمّتي ونزول العكروط في شبه انتشاء من الكدية. واستعدتُ كيف وجدتُ البارحة أمي وعمّتي تتصايحان. وكيف ظلّت عمّتي تشتعل غضباً.

كنت قلقلة قلقاً غريباً. فرحٌ مغلَّف بخوف. أفكِّر في المجهول الآتي وكيف أنّ حياتنا ستتغير. سأدخل المدرسة، سنأكل جيداً وسألبس مثل فتيات المدينة، لباساً نظيفاً ومزيّناً بالألوان والورود.

ابتسمت حين تخيّلت نفسي ألبس كسوة وساقاي عاريتان. سحر العيش في المدينة يناديني.

عند اقتراب المغيب مدَّت لي أمي كسرة خبز من الذرة الحمراء بزيتٍ وسكر. أكلتُها دون شهية. رشَّت عمتي وجهها بعطر زهر البرتقال وهي تُبدي خوفها من أن نقطع الطريق ليلاً إلى المدينة بين الغابات والتلال لوحدنا.

حضرَت جارتنا ميمونة لتستفسرنا عن سبب مغادرتنا القرية ليلاً. قاطَعَتْها أمي بأننا لن نرتاح منذ اليوم بين أناس يلوكون شرفنا. حاولَت أن تثنيها عن قرارها. ردَّت أمي بأنه منذ ما يقارب سنتين ونحن نحاول توفير مبلغ من المال يمكِّننا من الهجرة إلى المدينة ولكننا لم نتمكن، وها هو الوقت المناسب قد حان. صمَتَت وهي تجرِّب ثقل الرزم قبل أن تتابع:

لن يَطيب لنا مَقام بعد اليوم هنا.

عهدنا إليها بدجاجاتنا وبما تركناه من أفرشة البيت. سلَّمتها أمي مفتاح بيتنا. حضرت نعيمة تحمل قفّة من تين مجفَّف وخبزاً محشوّاً بقطع من لحم القديد. عانقتنا بحرارة، دمعت عيناها، وهي تطلعنا على رغبتها كذلك في الرحيل قريباً من تحت الجبال الصماء البكماء. تمنَّت أن نلتقي بوالدي في المدينة.

علا وجه أمي أمارة فرح غامر وازدادت حماسة وشعَّت البهجة بيننا حين حضر يحيا النسا وهو مستعدّ لمشاركتنا الرحيل. فاجأني حضوره. عرفتُ أنّ أمي كانت قد طلبت منه مرافقتنا في رحيلنا نحو المدينة. كان الرجل ينتعل حذاء سميكاً، وقد شمَّر عن يديه وحمل

بندقيته وساطوراً، سلَّم علينا وأضاف لازمته يحيا النسا قبل أن يهنّئنا على قرارنا:

عملٌ كهذا لا يقوم به إلّا أسياد الرجال... أنتن. على بركة الله ننطلق والويل لمن يفكِّر أن يعترض طريق نساء أنا حاميهن.

حمل الرجل رزمة وحملت عمّتي كيساً على ظهرها وحزمة بيدها. ربطت أمي لِفّة من ملابسنا على ظهري. ملهوفة للوصول سريعاً للمدينة جررت الماعزتين وانطلقنا عبر سالو، وشعور غريب من الفرح والحزن ومن مراودة المجهول يتوزّعني.

انطلق موكبنا والليل قد عَسْعَس. خرجنا ليلاً نتدثّر بالظلام ونغتسل برطوبة ندية ممّا وشم حياتنا في القرية. لأول مرة كنت أقطع سالو ونفسي مطمئنة. وجود يحيا النسا بيننا مَدَّني باطمئنان كبير. الرجل يسبقنا بفانوس يُضيء الطريق ونحن نتبعه بخطوات يثقلها ما نحمله من أغراض.

ونحن نصعد التلال تراءت لي السماء صفحة كبيرة من سحب بيضاء متَّسخة، أسرقُ النظر إليها. أرى أشكالاً لحيوانات وأغوال تلاحقنا مسرعة قبل أن تتبدَّد وتنبثق منها أشكال أخرى لا أعرف ماذا أسميها. لا طائرَ في السماء ولا سحابة تشكَّلت على شكل هيأة طائر. أشكالٌ غريبة من السّحب تخرج من السماء وتتجه نحوي كأنها ستسقط على رأسي وتبتلعني. سألت أمي عمّا أراه. أمرَتني بأن أشدّ جيداً حبال الماعزتين وأسرع من خطوي. عرجنا على طريق ضيق مرتفع بين التلال. منحدرات سحيقة تحفه.

من التلّ العالي تراءت لي السماء منحشرة قلب عباءة من

ظلام. شرعتُ أتطلّع إلى وجه أمي وعمّتي ويحيا النسا. أخفى الليل ملامحهم وانطمست معالم وجوههم، فكأني أرى وجوهاً لأناس لا أعرفهم. اطمأننتُ بعدما ردَّت عليّ عمتي حين خاطبتها وهي تجرّ رجليها مُثقَلَة بما تحمله.

يعجنني الفرح والخوف من أن لا يكتمل فرحي. أحسّ بالتعب وأتمنى أن نصلَ بسرعة إلى مكان ما وأضع يدي تحت رأسي وأنام.

وصلنا قمة التل من حيث علينا أن ننحدِر. ضياء القمر يضيء الغابات الممتدّة حولها ويمتدّ حيث تتجلى البركة السوداء. عرجنا يميناً. وطأنا غابة تنمو فيها بكثافة أعشاب الفرسو الطويلة. حين شرعنا ننحدر على تربة زلقة لنقطع النهر. تمنّعت الماعزتان عن السير.

أوقفنا يحيا النسا وطلبَ منّا أن ندخل الغابة دون إثارة جلبة. بدا متوتراً من صوته الخافت. كمَّمْنا أفواه المعزتين حتى لا ترفع صوتها باليعار، جرَرْناهما إلى الخلف وربطناهما حول جذوع شجرة ومكثنا دون حراك.

من الظلام برزت أمامنا خيالات يلفّها الظلام، ظلال لحيوانات سرعان ما تشكَّلت لتصبح خنازير برية تتوجّه نحو النهر لتشرب وقباعها يسبقها. لم يطُل وقت شربها. كان الاختباء مناسبة لنأخذ نفساً قبل أن نعود نكمل الطريق بحذر.

راحت أضواء تظهر بعيداً وتختفي حين قطعنا قنطرة الوادي. أمي أشارت بيدها وكأنها تطمئنني:

ها نحن قد اقتربنا من الوصول.

كم طالَ عليّ انتظار الوصول وكم ترقَّبته. حين كنت أعلن لأمي تَعَبي كانت تشجِّعني:

- بعد التلّ الآتي هناك البلدة الزرقاء. سنصل عبرها إلى المدينة وسنرتاح من عناء الطريق وعناء ما عشناه.

بانت أشجار عالية مرتفعة على جانب الطريق. نجمة الصبح تنور في السماء حيث تقاطعت أولى تواشيح الضياء. انفراجٌ يرسم على أديم السماء مخاض ولادة الفجر من بين غمم رمادية داكنة في الأفق. من بعيد تتراءى أضواء تشعّ خافتة خجولة، ابتلع ظهورها المضبّب بعضاً من قلقي.

أطلَلْنا على البلدة الزرقاء. أضواء كثيفة كثيرة تبرق لامعة من بعيد. ظهَرَ امتدادٌ شاسع من مدى أسود. لأول مرة كنت أرى البحر عن قرب، كان مدى من سواد. أذان الفجر يصلنا صداه من صومعة بالبلدة. اطمأنّ قلبي. هلَّل يحيا النسا:

- لقد وصلنا.

توقفت أمي وهي تشير جهة البحر:

من هنا سنركب الحافلة إلى تطوان. تأخَّرت هجرتنا. لكن كلّ شيء يمشي كما قدَّر الله... اللهم اجعلها لنا دار سلام وراحة... سنلتقي بوالدكِ هناك.

بادرتها بالسؤال:

أحقاً يا أمي؟

أوقَفَت استرسالها لتقول لي:

نعم قلبي يحدِّثني بأن أباكِ موجود هناك.

تدخَّل يحيا النسا:

إذا كان قد غنّى للجبال الصماء في البادية فمن غير المستبعد أنه يغني للقلوب الصماء العمياء في المدينة.

توجَّهت عمتي نحو أمي بلهجة حاسمة وهي تفتح قارورة العطر لتستنشق بعمقٍ عطر ماء الزهر:

استهدي بالله. أستقطعين عمرك في البحث عن زوجٍ غاب منذ زمن؟

رمَت أمي عينيها بعيداً ونفخت كلماتها في وجوهنا:

- أمنا حواء قضت عقوداً وأزمنة تبحث عن زوجها آدم.

نُشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة

المملكة المغربية



وزارة الثقافة

ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ

البشير الدامون

زهرة الجبال الصمّاء

«صرخةُ مرارة كاوية ندَّت عن عمّتي:

- لقد قتلوا رفيقَيّ، وصيَّروني عمياء، ولا أعرف إنْ كان أخي حياً أم ميتاً...

تشبَّثت أمي بأكبرهما سناً:

- أين زوجي؟

وهو يمسح جبهته من قطرات العرق، ويقبض على لجام البغل أجابها:

- كأنه رُفِعَ إلى السماء أو ابتلعته الأرض لا أثر له ولا أثر لشامة.

تساءلتُ من تكون شامة.

دونما اهتمام بهذا الاسم الذي شغلني صرخَت أمي:

- أين زوجي ومَن غيَّبه عني؟...

سكَنَنا انتظار عودة أبي. أصبحت أمي معظم الوقت ساهية تقول في حزنٍ إنّ ناراً حمراء تقيد في جوفها، وإنها حائرة، فلو عرفت أنه قُتل لسامحته أمام الله، أمّا إن كان قد هرب مع معشوقته وتركنا لوحدنا في كدية الريح فوالله لن تسامحه أبداً. تلعنُ حظّها ووالدي ذا الوجه الخمري، والعينين الملوّنتين بالأخضر والكستنائي الفاتح، الذي أغرقت قلبها بحبّه، ولم تجنِ منه إلّا خيبة قاتلة. تشتكي لمَن يزُرْنها من النساء وتتساءل كيف ستعيل لوحدها بنتاً وأختَ زوجٍ أضحَت عمياء».

السعر: 60 درهماً مغربياً
ISBN 978-9981-72-048-0





المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

لوحة الغلاف للفنان كازيمير ماليفيتش